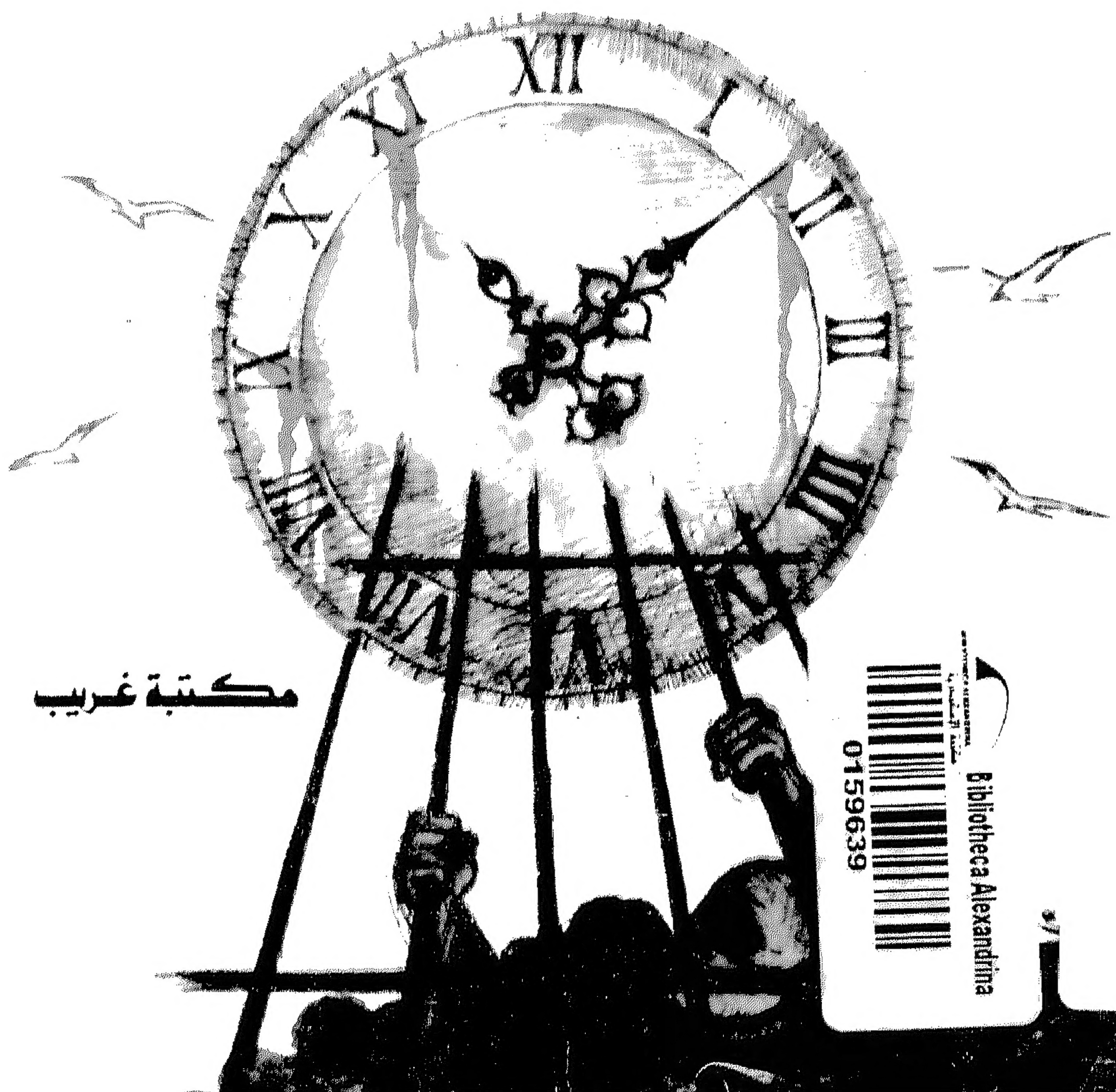
الهؤلاء

مجيد طوبيا



مكتبة غريب

مجيد طوبيا

الهؤلاء

مكتبة غريب

الفصل الأول

آلة الزمن الموسيقية

● **السبب فى وقوع كل ماحدث :**

بدأ كل ذلك عندما كنت أقرأ كتابا باغة ديار « أيبوط » المجيدة ، التى كان من نصيبى أن أكون أحد رعاياها . . ولو لم أكن أقرأ لما حدث شىء على الإطلاق ..

قرأت أن دوران الأرض حول نفسها يحدث فى اتجاه مضاد لدوران عقارب الساعة !! .. دهشت جدا وقلت : لماذا تدور الأرض ضد الساعة وليس معها !! .. وظل هذا السؤال يشغلنى فترة طويلة ، إذ خطر لى أن هذا التضاد فأل سىء سوف ينتهى حتما بنهاية مريبة .. وأخذت أسائل نفسى عن المسئول عن هذا الوضع الخطير ؟ !

لكنى سرعان ما تنبهت إلى أن الخطأ يقع على مخترع الساعة ، ذلك أن الأرض كانت تدور فى اتجاهها من قبل أن يصمم ابتكاره ، وهو الذى شاء أن يختار لها الدوران بالضد ! ! وكان يمكنه أن يفعل النقيض ، أن يركب تروسها وباقى أجزائها بحيث تدور العقارب مع اتجاه دوران الأرض ، ولو فعل ذلك لما حدث لى كل ما حدث من إهانات واتهامات ومن ابتعاد عن حبيبتى واسعة العينين ذات الهمسة الآسرة ..

وكى أكون منصفا لهذا المخترع الذى لا أذكر اسمه أقول إنه

ربما لم يكن يعرف شيئا عن اتجاه دوران الأرض ، ومن الجائز جداً أنه كان يظنها ثابتة ..

وصار شغلى الشاغل هو البحث عن وسيلة لإصلاح الحال بحيث لا تخالف الأرض فى دورانها أى ساعة من ساعات بنى البشر . .

● واقعة هامة سبقت كل ذلك :

لكن قبل أن يحدث كل ما حدث ، جرت واقعة هامة مفادها ما يلى :

فقد كنت سائرا ذات يوم فى أحد شوارع عاصمة (أيبوط) الفنية ، عندما شككت فى أن ساعتى غير مضبوطة ، وللتأكد أوقفت أحد المارة وسألته عن الوقت . . حملق نحوى مرتابا وقال باستنكار :

ـ أنا لا أحمل ساعة أبدا ، أتركها فى البيت دائما .. انظر .

وسحب كم قميصه الأيسر إلى الخلف ليؤكد كلامه ، بالمثل فعل مع كمه الآخر وهو يصيح فى كل مرة : « انظر » .. ثم قال :

ـ كذلك لا أثبت قلما من أى نوع فى جيبى العلوى الخارجى ولا حتى الداخلى ..

حملق فى :

– أنا لا أستعمل هذه الأشياء، وخاصة عند حديثى مع المثقفين .
حدثت نفسى بأنى وقعت على رجل مخبول ، وكانت حماقته
زادت فأسرعت مبتعدا عنه عابرا الميدان من ناحية اليسار ،
تحت لأنه اتجه إلى الناحية الأخرى . إلا أننى عند عبورى
م المقهى إذ به يلحق بى بابتسامة مرتعشة ويقول :

– لعلك تظننى مجنونا ؟ !

قلت فى جفاء :

– أنا لا أظن شيئاً .

ثم مشيت مقطبا فسار بجوارى :

– اعطنى فرصة كى أثبت لك عدم جنونى ..

واجهته غاضبا :

– سيان عندى إن كنت مجنونا أو عاقلا ، هذا لا يهمنى ،
ناً عنى . .

ثم أسرعت لكنه تبعنى متوسلا ، دافعا ببطاقة هويته أمام
ى فلمحت اسمه فاذا هو أحد أدباء « أيبوط » النصف معروفين !
لم أصدق من باب الحذر وأمسكت بالبطاقة وفحصتها جيدا
تبدو حقيقية وإن كان من الجائز أن تكون مزيفة ، لكنه أرانى
رته فى مجلة بيده .. قال :

— فنجان قهوة على هذا المقهى وأشرح لك كل الأمر ..

ونادى الجرسون باسمه ، ثم استدار نحوى :

— أنت لست من هذه المدينة ؟؟

— فعلا .. أنا وافد حديث

— خمنت ذاك بمجرد سؤالك عن الساعة

زادت دهشتى .. قال :

— أى مثقف من هذه العاصمة يتحاشى ذكر الساعات

عاودنى شكى فى خبله ، لكنه حكى لى حكاية غريبة . .

● **الحكاية الغريبة التى رواها لى :**

قال :

— ويمكنك اعتبارها نكتة او استظرفتها ..

— إنى منصت ..

— الأمر يتعلق بشائعات جارية تربط بين بعض مثقفى ديار ايبوط وبين « الهؤلاء » .

سكت متفحصا رد فعلى عقب ذكره لسيرة « الهؤلاء » . . لكنى حرصت على أن يظل وجهى جامدا لا ينم عن أية انفعالات — والحذر فى مثل هذه الحالة واجب يفرضه التعقل — إذ أن المثقفين يستعملون كلمة الهؤلاء للدلالة على رجال المباحث والعسس والمتعاونين معهم . .

ثم عاد جليسى إلى الكلام :

ـ تقول هذه الشائعات الجارية بأن نسبة المتعاملين سرا مع الهؤلاء من بين المثقفين تصل إلى الخمسين فى المائة : من كل عشرة خمسة ومن كل ستة ثلاثة ، وهكذا ... وحدث أن جلس اثنان معا فسأل أحدهما الآخر إن كان من الهؤلاء ، فرد نافيا ذلك ، فقال له : إذن فهو أنا !! ..

ضحك .. فابتسمت مجاملا إذ لم تعجبنى النكتة .. لا حظ هو ذلك فقال :

ـ مع أن المثقفين يضحكون جدا وبعصبية شديدة من هذه النكتة !! بالفعل أنت قروى !

ثم خفض من صوته موضحا الأمر :

ـ يساهم المثقفون من صحفيين وأدباء وفنانين فى توجيه الرأى العام ، هذا أمر معروف ؟؟

ـ نعم

ـ لذلك فهم أكثر الفئات تعرضا لأن تراقب تصرفاتهم وأقوالهم ، ولأن تصادر حرياتهم .. ولعلك تعرف أن ذلك يحدث فى بلاد عديدة مثل بلادنا حتى صار من سنن الحياة !!

لم أعلق .. قال :

— ويظن المثقفون فى هذه البلاد العديدة أن أحاديثهم الخاصة يتم تسجيلها بمعرفة الهؤلاء ، عن طريق أجهزة تسجيل دقيقة توضع فى ساعة بمعصم محدثهم أو فى قلم بجيبه العلوى . أو ما شابه ذلك من مخترعات حديثة . .

حزن صوته :

— لذلك تجد الواحد منهم يبدأ حديثه معك طبيعيا إلى أن تقع عيناه على ساعتك فيتبدل حاله ويتراجع فى أقواله . . ويتحول — فى غمضة عين — من إنسان مثقف إلى أسطوانة مشروخة يظل يكرر الآراء المنشورة ، وينهال مدحا وتقريظا لصفات « الديجم » رئيس ديارنا المحبوب ودون مناسبة أو مبرر . . يبدأون بالشك فى كل غريب ، ثم فى الأصدقاء البعيدين وينتهون بالريبة فى أقرب الأقرباء إليهم ! . . وكنت أعرف أن دورى قادم فأنا أضع ساعة فى معصمى لأن معرفة الوقت أمر هام جدا ، كما أنى أحب أن أحمل القلم فى جيبى لأن تسجيل الخواطر فور ورودها على الذهن أمر حيوى بالنسبة لى . لكن نظرات الرعب فى عيونهم أشعرتنى بالإهانة ، فتنازلت عن حمل هذه الأشياء ، وتخلصت مرغما من قلمى فضاعت منى كثير من التهويمات المبتكرة !! ومن ساعتى فلم أعد أحافظ على دقة المواعيد . . عندما يرتبط أحد المثقفين معك بموعد فانه يقول لك : قابلنى صباحا أو بعد الظهر أو مساء ولا يحدد لك وقتا محددا لأنه لا يحمل ساعة ! !

تنهد : . ثم نظر إلى الشارع وشاعت الحركة فى نظراته قائلا فى أسى كبير :

- وسأريك فورا تجربة عملية .. انظر ..

● **التجربة العملية التى أجراها فى وجودى :**

وقف مرحبا برجل كان يهبط من سيارة جديدة . . ثم قدمه لى فعرفت أنه صاحب قلم مشهور .. غمزنى ثم مضى يقول رأيه فى رئيسنا « الديجم » وفى بعض الساسة بسخرية لاذعة ، فضحك صاحب القلم المشهور بابتسامة واسعة مشرقة وبدأ يشارك فى الهجوم . . لكنه فجأة - ولدهشتى الحزينة - وقع نظره على ساعتى البارزة من كم قميصى ، فبرقت فى عينيه نظرة خوف كريهة وصارت ابتسامته مرتعشة ، ثم اقترب بفمه من معصمى وقال بنبرات واضحة :

- على العموم فان هذا رأيك أنت ..

- طبعا توافقنى عليه ؟؟

قرب بفمه أكثر من ساعتى وقال بصوت أعلى :

- رأيى فى هذا الموضوع والذى لا أحيد عنه هو . . . . . .

ومضى يردد بصورة آلية ومن حنجرة باردة غير متلونة آراء

سمجة لا تخرج عما يردده راديو وتلفزيون وصحافة أيبوط الفتية . . . ثم استدار إلى الشارع مغيرا مجرى الحديث بتعليقات أخذ يطلقها على كل عابرة من أمامنا فهذه رائعة ترم العظام وهذه تعيد للكهل شبابه وهذه تدفىء المرء فى برد الشتاء . . ثم ذكر بعض الشائعات الجنسية عن ممثلة سينمائية معينة وأخرى مسرحية مشهورة جدا ، وتحدث عن الشذوذ عند الذكور من الشخصيات العامة وذكر فى هذا المجال عددا كبيرا جدا من الأسماء اللامعة . .

وعقب ذلك نهض إلى سيارته منصرفا ، فقال جليسى :

— من يسمعه يظن أنه ذئب نساء خطير ، وأمره مع المرأة قد انتهى منذ سنوات .. يكتب مقالات معادة فى السياسة لكنها جيدة ، ويحشر نفسه فى الأدب والفن فيبدو غبيا ضيق الأفق ..

● تنبيه قبل أن أعود إلى الحكاية الأصلية :

ليكن معلوما أن كلا من صاحب القلم المشهور والأديب النصف معروف هما شخصيتان من اختراعى ، ولا علاقة لهما بالواقع المعاش فى ديارنا الأيبوطية المظفرة . . كذلك الحال مع جميع الشخصيات التى قد يأتى ذكرها فيما بعد ..

وقد تعمدت ذكر هذه الحقيقة حتى لا يجهد أحد ذهنه فى محاولة تخمين لا جدوى منها . . فهذه الرواية لم تقع هنا ؛ لم

تحدث الآن : . وإنما حدثت أحداثها إبان زمن غير مؤكد وفى بقاع غير معروفة . . لذا لزم التنويه . .

كذلك فان شخصية الراوى – الذى هو أنا – تخيلية غير مرجودة .

● عودة إلى دوران الأرض ودوران الساعة :

بعد حكاية ساعات المثقفين السابقة قرأت بالصدفة – فى كتاب باللغة الأيبوطية – عن دوران الأرض ، وكيف إنها تدور ضد الساعة ! ! . . وخطر لى – كما ذكرت – إن هذا التضاد فأل سيء . . فكيف نتلافى هذا الاختلاف ؟ !

جلست أشعل لفافة تبغ من لفافة تبغ – فهكذا يفكر أبطال أفلامنا – متأملا الدخان الكثيف الذى لم يكن يتصاعد إلى سقف الغرفة وإنما كان يتبعثر خارجا من النافذة .. وكررت ذلك إلى أن واتتنى الفكرة النيرة التى أدت إلى تعرضى للإهانات والافتراءات وإلى افتراقى عن حبيبتى الحمرية دافئة الحضن . .

ذهبت إلى مبنى إذاعة وتلفزيون أيبوط ، حيث وجدت عددا من « الهؤلاء » يحرسون المدخل ، استوقفنى أحدهم وسألنى عن هدفى فلم أفصح وقلت له :

– أريد مقابلة المدير . .

زاد احترامه لى وسألنى فى أدب مبالغ :

— أى مدير ؟؟

— مدير الاذاعة والتلفزيون

— لكل منهما مدير أيها السيد

— أريد مقابلتهما معا ..

أمسك قلمه ليكتب فى دفتر طويل عريض أمامه اسمى ورقم هويتى .. فدهشت وسألته عن جدوى هذه الاجراءات؟! فهمس وعيناه تغمزان فى خطورة :

— احتياطات أمن ضرورية ، تعرف أن لنا أعداء ..

ثم عاد يسألنى عن هدفى من الزيارة ، فعرضت عليه المشكلة فى تبسيط شديد يليق بإلمامه العلمى الضئيل ، إلى أن قلت فى هدوء شديد :

— أما عن تغيير دوران الأرض فهذا محال ، على الأقل فى حدود المتاح لنا علميا الآن .. فيكون الحل الوحيد والذى لا يوجد غيره هو دعوة الناس إعلاميا إلى المشاركة فى مناقشة هذه المشكلة وحثهم على المساهمة بأفكارهم كى لا تدور ساعاتهم ضد الدوران الطبيعى للأرض ، وبذلك نقتل الفأل السىء ..

حملق الثلاثة إلى بعضهم البعض بطريقة مريبة !

● أنه يتحدث عن القتل ! :

هكذا همس الأول فهمس الثانى :

ــ تحدث فعلا عن القتل ! !

جحظ الثالث :

ــ القتل ! !

ومن فورى ارتعبت وتركتهم وفررت هاربا مشيعا ببعض الأشياء القابلة للقذف ..

● حديث مريب عن الرموز :

بعد أن اطمأننت إلى أن أحداً لا يطاردنى انتحيت جانبا إلى شاطىء النهر ، حيث جلست على السور الحجرى قريبا من الكوبرى الخشبى ، وكانت بعض السحب تحجب الشمس ، وكنت عرقانا لهاثا عندما اكتشفت رجلا بعين جاحظة يجلس إلى جوارى مبتسما فى لزوجة ويقول :

ــ كان نصيبى أن سمعت كل حديثك مع حراس المدخل ..

قلت فى سرى أنه واحد من الهؤلاء .. قال :

ــ لا لست واحدا من الهؤلاء ..

قلت لنفسى أنه يكذب .. فقال :

– وأنا لا أكذب يا عزيزى

فماذا يريد إذن ؟! .. قال :

– أدهشتنى فكرتك عن دوران الساعات البشرية ضد اتجاه دوران الأرض .. فهل تقصد البشر فى أيبوط فقط أم البشر فى جميع أنحاء العالم ؟؟

لم أرد .. قال :

– وهل هذه حقيقة واقعة فعلا أم أنك تقصد من وراء ذلك رمزا ؟؟

إنه يستدرجنى ، لن أتكلم .. قال :

– أنا لا أستدرجك إلى أى شىء ، تبدو ناصحا .. ولكننى شغوف لمعرفة إن كنت تقصد بعض الرموز فى كلامك هذا ؟؟

– وما هى هذه الرموز ؟!

– مسألة أن ديار أيبوط السعيدة تسير ضد الزمن وليس معه !!

هذا كلام فى السياسة ، لن أتكلم .. قال :

– أنا لا أجرك إلى كلام فى السياسة ، صدقنى ، لكنك تعرف أن لبعض الناس آراء حمقاء : إذ يزعمون بأن هذه الديار قد تخلفت عن حضارات هذا القرن بعشرات السنوات !! .. وهذه سخافة ،

فالذى حدث أن هذا القرن هو الذى سبق هذه الديار بعشرات السنوات ..

حملقت إلى عينيه الجاحظتين :

— وما الفرق ؟!

— فرق كبير .. فهم يزعمون أن أيبوط الخالدة قد تخلفت ، وأنا أقول بأنها لم تتخلف أبدا ولكن هذا القرن هو الذى سبق .

لزمت الصمت موقنا بأنه معتوه ولا ريب ... فابتسم فى رحابة صدر :

— لست معتوها ..

اغتظت وتركته هاربا بأقصى سرعة ، حتى عبرت إلى الضفة الأخرى للنهر .. لكنه كان يتتبع أثرى فوق أرضية الكوبرى الخشبى مستخدما حاسة الشم !!

● **أرجوك أن تسامحه :**

.. بعد ذلك عدت إلى الضفة الأولى بواسطة أحد القوارب من قبيل التضليل . . وفى الميدان الكبير وجدت آلة الزمن الموسيقية الضخمة ، وتحركات عقاربها تجرى على عواهنها ، وأصوات موسيقاها صخب وضجيج !! .. وجلست أتذكرها

عندما كانت جديدة ومصانة ، لكل ربع ساعة فيها نغمة خاصة ترقص عليها عرائس بديعة تظهر وتختفى فى الوقت المناسب وفى تناسق ساحر يأخذ بالألباب .. وقلت : تدهورت آلة الزمن الموسيقية بعد أن كانت أعجوبة فى الدقة !! .. ثم تحاورت مع نفسى عن بعض الدول التى تتحدث فقط عن العلم مع أنه لا يدخل فى تكوينها النفسى أو الحياتى ، ثم أخذت أقول بأن تلك هى علة العلل .. وعندئذ إذا بى أسمع صوتاً يقول :

ــ معك حق فى كل هذا

تنبهت إلى حملقة رجل يجلس لصقى .. فارت دمائى ، صرخت فيه :

ــ هل تتجسس على أفكارى أنت الآخر ؟!

قال فى هدوء مريب :

ــ أيها السيد العزيز : كيف يمكننى معرفة أفكارك وأنت لم تحدثنى بها بعد ؟!

لاحظت شدة شبهه بالجاحظ السابق .. فقال على الفور :

ــ إنه أخى ، وقد أرسلنى كى أبلغك اعتذاره ، يأسف أخى إن كان قد سبب لك بعض الازعاج .. وقد تركته يبكى فى

البيت ندما على ما بدر منه .. وأنى باسم رئيسنا النجم الرائع أرجوك أن تسامحه ..

قلت أتخلص منه :

— سامحته

— شكرا لك يا سيدى العزيز

ثم نهضت مستأذنا ..

● دعوة لزيارة الملك المصرى القديم :

.. لكنه اعترض طريقى سائلا :

— كم الساعة معك الآن ؟؟

— الثانية عشرة والنصف ساعة

نظر فى ساعته وقال :

— كما لاحظ أخى تماما .. ساعتك تتقدم الوقت الرسمى بنصف ساعة ، فنحن الآن فى الثانية عشرة فقط ، والدليل على ذلك أن ظلالنا أسفلنا تماما ، فالشمس الآن عمودية تتوسط السماء ..

— أعرف أن ساعتى تقدم نصف ساعة ، وهذا يسعدنى .. وأرجوك أن تدعنى لوحدى ..

— هل يسعدك خلل الساعة ؟! أم هى رغبة دفينة بداخلك لسبق الزمن الرسمى ؟!

لم أرد عليه ، وكان صبرى قد نفد ، ولم أكن أريد الحديث معه ، فقلت له مهددا :

— إن لم تتركنى ضربتك ..

ألح فى لزوجة :

— حلمك يا عزيزى .. واسمح لى أن أصحبك فى زيارة قصيرة

هددته بقبضة يدى محذرا .. فقال مصرا :

— عفوا أيها السيد الغالى .. زيارة قصيرة لمتحف آثار مصر القديمة قد تعطينا الإجابة على مشكلة الزمن التى تشغل ذهنك

● السر المفقود :

وأخذنى فى رحلة سياحية إلى هناك ، حيث قادنى رأسا إلى غرفة المومياوات .. أشار إلى مومياء ملك المصريين القدماء الملك الطفل المسمى « توت — عنخ — آمون » .. وقال :

— دقق النظر إلى هذا الفتى الوسيم

تفحصت وجه الملك .. كان ناظرا إلى أعلى وفى هدوء ، نضر الوجه كأنه يهم بالابتسام .. سألنى :

ـ هل تجد أية تجاعيد على وجهه ؟؟

ـ إطلاقا ، فهو لم يكمل بعد العشرين عاما

ـ متى كان ذلك ؟؟

وجمت ، وحاولت تذكر الوقت الذى عاش فيه .. قلت :

ـ منذ حوالى ١٥٠٠ سنة قبل الميلاد

ـ وما زال شابا ؟؟

ـ ... ...

ـ وما زال شابا ؟؟

قلت :

ـ لكنه محنط .. أى ميت ! !

ـ فهل تجد فى هذا الأمر معنى رمزيا ؟؟

احترت ، ها هو يعود مثل أخيه إلى حديث الرموز .. شعرت بدوار من هواء المتحف الراكد ، فخرجت على الفور .. وعدت من سياحتى القصيرة هذه إلى جلستى الأولى عند آلة الزمن الموسيقية التى عطبت ، حيث وقف الجاحظ يودعنى :

— وبخصوص دوران الأرض يسأل أخى : أولا ، هل أنت متأكد أنها تدور أصلا ؟!

— العالم كله يعرف ذلك

— حسناً وإن كنت أكره المسلمات .. فهل أنت واثق — يسألك أخى — من أنها تفعل ذلك فى اتجاه مضاد لحركة عقربى الساعة ؟؟

هز كتفيه ناصحا :

— ارجوك التأكد من هذا

● هذا مكتوب :

عدت إلى الكتاب الذى قرأت فيه مسألة الدوران هذه ، وكان من حسن حظى أن وجدت على ظهر الغلاف صورة للمؤلف أسفلها نبذة عن حياته ومؤلفاته وتاريخ ميلاده وعنوان مسكنه ، ومن فورى قررت زيارته ..

وفى إحدى الفيلات الأنيقة وجدته يداعب كلبا ضخما له كمامة على فمه ، مضى يحدثنى عن عراقة سلالته ، وعرفنى باسمه موضحا بأنه لا يستجيب إلا لصوته هو فقط .. ثم طلب منى أن أجرب ، فناديت على الكلب باسمه فلم يتحرك ولم ينظر لى بتاتا .. فضحك صاحبه مؤلف الكتاب وناداه فدب النشاط فى جسده وهز ذيله .. قال :

– النوع الأصيل لا يستجيب إلا لصوت صاحبه فقط ..

ثم حدثنى فى إفاضة عن إضافاته فى مجال العلم الأيبوطى ، وقال أنه توصل إلى أشياء لم يتوصل إليها أحد من قبل .. ثم تواضع قائلا :

– أخمن أنك أحد المعجبين بى

– أنا مؤمن بالعلم يا سيدى

– هذا أمر يسعدنى

– ومن رأيى أن نزرع حب العلم فى نفوس الناس منذ طفولتهم حتى يتحول إلى سلوك فى حياتهم وليس إلى مجرد كلام للتظاهر

– رأى سديد

– وقد قرأت فى كتابك أن الأرض تدور فى اتجاه ضد دوران الساعة

– هذا مكتوب فى الكتاب

– ولما كان هذا أمرا عجيبا فقد جئت للتأكد منك

– هذا مكتوب

– لكن أحد الناس شككنى فى احتمال أن يكون هناك خطأ ما

انقلبت سحنته ورمقنى فى غضب :

— هل أنت من أتباع الدكترر الحمار ؟؟

— لا أعرف أحدا باسم الدكتور الحمار !

— حقا ؟!

— بالحقيقة لا أعرفه

— إنه ذلك الجاهل المجهول الذى يدعى العلم أكثر مـ
وينافسنى فى تأليف كتب العلم الأيبوطى .. هل أرسلك لتـ
سمعتى وسمعة مؤلفاتى ؟! هل أنت قريبه ؟؟

— اطلاقا .. لا

— صديقه ؟

— ولا صديقه

— فأنت أحد مأجوريه

وقبل أن أنكر ذلك أتى بحركة قام على أثرها الكلب بالتـ
ضدى وظل يزوم فى وجهى .. شعرت بالخوف لكن الـ
فى فمه طمأنتنى ، قلت :

— سيدى المؤلف ، لا أطلب أكثر من الإجابة بنعم أو لا
هل أنت متأكد من أن الأرض تدور ضد الساعة ؟؟

ـ هذا مكتوب

ـ فهل أنت متأكد منه ؟؟

نهض وأحضر كتابا ضخما يبدو أنه إحدى الموسوعات العلمية وقالى :

ـ سترى أننى على صواب

● **كلب المؤلف يتدخل فى المسألة :**

... وظل يبحث ويقلب بنرفزة ثم بحيرة وعصبية ، ولا أدرى إن كان قد وجد الجواب أم فشل فى ذلك ، إذ كف عن البحث زهقا .. فسألته :

ـ هل قرأت شيئا ؟؟

رد فى غضب :

ـ قرأت ما قرأت أيها البلطجى ، ولا شأن لك به .. حتى لو كانت الأرض ساكنة !! تدور أو لا تدور !! ما شأنك أنت بهذه الأمور المعقدة ؟!

ثم حرض كلبه ضدى فوقفت مزمعا الفرار ، فقفز بثقله نحوى وأرقدنى تحته وظل يحاول نهش جسدى لولا الكمامة .. حاولت النهوض لكنه كان مدربا .. فجاهدت فى مقاومته زاحفا

ناحية باب الحديقة ، بينما المؤلف يتوعدنى مقسما برئيسنا الديجم راعى العلم بأنه فى المرة التالية سيرفع كامنه الكلب . . ورأيت أحد رجال « الهؤلاء » فى الخارج فاستنجدت به لكنه وقف يتفرج على الموقف شغوفا ، ولم يظهر أى تعاطف معى ، وإنما أبدى عظيم إعجابه بمهارة كاتب المؤلف . .

● البلف وقراءة الكف وأمور أخرى :

وضع الجرسون أمامى فنجان القهوة الثانى ، وللمرة الثانية نظر إلى مستريبا .. كانت ملابسى متسخة ممزقة من مخالب الكاتب الفظيع ، وربما ظننى الجرسون متشردا لا أملك حق ما أشرب ، لذلك دفعت حسابى وتعمدت ترك بقشيش كبير ، أخذه ولم يشكرنى ومضى . .

أخذت أركز ذهنى لأفكر بطريقة منظمة ، واستغرقت فى ذلك وقتاً لا أعرف قدره تماماً .. إلى أن تنبهت على ورقة تلقى أمامى ، قرأتها فوجدت بها ما يلى : « الواقف أمامك قارىء كف وفنجان متخصص ومنجم ـ يقرأ الطالع ويحسب المستقبل ـ الواقف أمامك هو أول عراف يحسب الغيب على أسس علمية ـ شهادات من الخارج ودراسات متخصصة من بلاد نائية »

نظرت إليه فوجدت ملابس رثة فوقها لحية مشعثة تحيط بوجه شاحب وشفاه متشققة لا توجد إلا مع معدة خاوية . . أعطيته بعض المال القليل كمساعدة فانصرف داعياً لى . .

وعدت أحاول التركيز فى التفكير المنظم الذى كنت قد نويته . . فمر بى ماسح أحذية ثم أحد الشحاذين من بعد بائعة المثلجات فمتسولة صغيرة ثم ضرير ثم رجل يحادث نفسه بصوت مرتفع — ولم يكن هناك من يبتسم — ثم وضع رجل أمامى ورقة صفراء قرأت فيها ما يلى : «حبوب الأرواح — مقوى ومفيد يزيل الرطوبة أكيد — من إحليل التمساح وجماة أعشاب لا يمكن الحصول عليها — يمنع ارتخاءالأعصاب عند الشيوخ والشباب —يساعد فى الواجبات الزوجية ويشعر آخذه بلذة لم يسبق لها مثيل — مسجل بوزارة الصحة والحياة الأبوطية تحت رقم سرى — فاطلب العلبة من موزع الإعلان قبل نفاده »

أعدت إليه الإعلان مشمئزا ، وعندما انصرف لاحظت عن قرب رجلا بعين جاحظة يحدق نحوى فكرهت كل شىء ونهضت . .وبعد أن ابتعدت نظرت خلفى فوجدته يتتبعنى فقر رأيى أن أفقده أثرى ، موقنا أنه أحد الهؤلاء . .

وأخذت أراوغه فى منحنيات المدينة حتى اختفى تماماً من ورائى . . لكنى فجأةوجدته أمامى (قد يكون واحدا آخر شبيهه) . . فجريت بأقصى سرعةوظللت أجرى حتى سمعت هدبرا صاخباً يبدو وكأنه صادر من آلاف الحناجر الصارخة ، ففرحت وقلت أستجير بهم ، وتوجهت نحو الصوت . .

● الزمن الضائع :

وجدت الأصوات الهادرة تنبعث من داخل بناية أسمنتية عملاقة شبه دائرية ، كأنها بيت الغول . . وكانت هناك سيارات كثيرة من شتى الأنواع والألوان وشاحنات ضخمة مكتوب عليها : « شرطة أيبوط – فرق تفريق المظاهرات المعادية » . .

بقلب واجف دخلت ، وكلما ارتفع الهدير البشرى فى أذنى كلما تراقصت أحاسيسى . . يمكننى الاحتماء بالناس – هكذا فكرت – وإن وجدت فرصة شرحت لهم الأمر كله وربما تمكنت من إقناعهم .

ثم بدأ يتكشف لى تدريجياً فإذا بى فى ملعب لكرة القدم !

تقدمت مذهولا إلى وسط الاستاد . . عشرات الألوف من المتفرجين المنقسمين إلى جانبين ، كل جانب يصيح فى وجه الآخر ! . . ورجال الأمن متحفزون بالدروع فى مواجهة المدرجات . .

تنبه إلى اللاعبون واحداً تلو الآخر ، ثم الحكم وكان ممتقع الوجه ، ثم وجدت نفسى فى مواجهتهم . . ويبدو أن المتفرجين تنبهوا كذلك إذ بدأ الهدوء يخيم تدريجيا ، وجاء صمت رهيب أصابنى بالرعب . . وكل العيون تنظر نحوى ! !

تمالكت وبدأت أتكلم ، وللأسف فقد كان صوتى ضعيفا ، كنت فى حاجة إلى مكبر صوت كى يصل صوتى إلى هذه الألوف الغفيرة . . وكنت أتكلم بالصوت والإيماءة ، وأشرت إلى ساعتى أكثر من مرة ثم إلى رأسى ، ثم عدت أركز الإشارة إلى الساعة فعادت الجماهير تزوم !! . . وحدث أمر عجيب : أحد الجانبين هلل مؤيدا وهاتفا لى ! فلما توجهت نحوهم سعيدا لأشرح لهم كل الأمور إذا بالجانب الآخر يزوم ضدى ويلقى نحوى بأكوام كبيرة من الطوب وقشر البرتقال وزجاجات الكازوزة الفارغة !!

وعند هذا الحد جريت هاربا . . إلى الشارع ، وأنا فى حيرة من أمرى ومن أمرهم !!

● **جاحظ العينين يفسر بعض ماغمض من الأحداث السابقة :**

ظللت أجرى وأجرى مبتعدا عن بناية الأسمنت الهائجة بالأصوات البلهاء ، داخلا إلى شوارع تحيطها البنايات العالية من كلا الجانبين ، إلى أزقة ضيقة خالية من الناس . . حتى اطمأننت إلى أننى لم أعد مطاردا ، وكنت ألهث فوقفت أستريح وأغمضت عينى أريحهما ، لكنى تنبهت على سماع أنفاس خافتة عن قربى ، رغم اننى لم أسمع خطوات تقترب ، فتحت عينى . .

كان جاحظ العينين (أو بديله) يرسم ابتسامة لزجة .: قال :

ـ لقد أثرت فتنةبين جمهور الكرة وحاولت دفعهم إلى التفكير ! !

حملقت إليه . . قال :

ـ هذا اتهامى لك : لقد أحدثت وقيعة بين الكرويين وهم كائنات مسالمة لا تبغى غير التسلية التى لا تجهد الذهن .

وأخذ يشرح فى رتابة ـ والعهدة عليه ـ أن المباراة كانت قد وصلت إلى نقطة حرجة ، وكان الحكم فى حيرة من صحة إحدى الرميات وكان يتشاور مع مساعديه إن كان هناك وقت ضائع أم لا . . والذى حدث فى تلك الآونة ان دخلت أنا وظللت أشير بأصبعى إلى ساعتى ، وإشاراتى هذه هى التى جعلت الجميع يصمتون ظناً منهم أننى أدلى برأيى فى مسألة الوقت الضائع . . لذلك هلل الجانب الذى يرى أن إطالة وقت اللعب فى صالح فريقه ، وانهال الجانب الآخر على بالسباب . . وبعد هروبى تطاول بعض من هنا على بعض من هناك وقامت معركة عظمى أدت إلى إصابة أحد كبراء الأمن بحجر فى أنفه فانبعجت . .

ثم وضع الجاحظ أصبعه فى وجهى :

ـ سوف تتحدث صحافتنا الحرة غدا عن فتنة بين أهالى الكرة أنت مثيرها !

● وشوشة الحبيبة :

لذت بشقتى وقلت أتوب عن الفضول وعن حث الناس على التفكير .

أغلقت الباب جيدا وتأكدت من جميع النوافذ . وبعد أن أطفأت جميع الأنوار رحت أحاول نسيان ما أصابني من عنت وتعب ، بتذكر وجه حبيبتي واسعة العينين . . فبدأت أسمع همساتها الرقيقة في أذني ، توشوش فيها بكلمات الحب ، وتعطيني شفتيها في قبلات راغبة دافئة . . وشيئا فشيئا ومن بين الظلام تجسدت لي ، بابتسامتها الساحرة ذات الغمازتين ، وجاءت إلى جواري ورحت أفك ضفيرتها لينسدل شعرها طويلا رائعاً فوق كتفيها الناعسين ، وأخذتها في حضني وصرنا نتقلب معا حتى انتشينا وتهادينا في نوم هادىء قرير بعد أن اطفأنا النور . . .

● الجاحظون :

. . . لكني تيقظت فجأة على اللمبة مضاءة . . وبعد أن زالت غشاوة النور المباغت فوجئت بسبعة من رجال الهؤلاء يحيطون بسريري — أظنهم ثمانية — وكان الوقت ليس كالنهار وليس كالليل . . وكانوا جميعاً من ذوى العيون الجاحظة الذين قال أكثرهم جحوظا :

— باسم رئيسنا الدنجم العادل ستأتي معنا

جلست غير مصدق . . فكرر قولته السابقة . . وقلت له :

— هل أنا متهم يا سيدى ؟!

— فلتنهض معنا

— وبخصوص دوران الأرض يسأل أخى : أولا ، هل أنت متأكد أنها تدور أصلا ؟!

— العالم كله يعرف ذلك

— حسناً وإن كنت أكره المسلمات .. فهل أنت واثق
— يسألك أخى — من أنها تفعل ذلك فى اتجاه مضاد لحركة عقربى الساعة ؟؟

هز كتفيه ناصحا :

— ارجوك التأكد من هذا

● هذا مكتوب :

عدت إلى الكتاب الذى قرأت فيه مسألة الدوران هذه ، وكان من حسن حظى أن وجدت على ظهر الغلاف صورة للمؤلف أسفلها نبذة عن حياته ومؤلفاته وتاريخ ميلاده وعنوان مسكنه ، ومن فورى قررت زيارته ..

وفى إحدى الفيلات الأنيقة وجدته يداعب كلبا ضخما له كمامة على فمه ، مضى يحدثنى عن عراقة سلالته ، وعرفنى باسمه موضحا بأنه لا يستجيب إلا لصوته هو فقط .. ثم طلب منى أن أجرب ، فناديت على الكلب باسمه فلم يتحرك ولم ينظر لى بتاتا .. فضحك صاحبه مؤلف الكتاب وناداه فدب النشاط فى جسده وهز ذيله .. قال :

— النوع الأصيل لا يستجيب إلا لصوت صاحبه فقط ..

ثم حدثني في إفاضة عن إضافاته في مجال العلم الأيبوطي ، وقال أنه توصل إلى أشياء لم يتوصل إليها أحد من قبل .. ثم تواضع قائلا :

— أخمن أنك أحد المعجبين بي

— أنا مؤمن بالعلم يا سيدي

— هذا أمر يسعدني

— ومن رأيي أن نزرع حب العلم في نفوس الناس منذ طفولتهم حتى يتحول إلى سلوك في حياتهم وليس إلى مجرد كلام للتظاهر

— رأي سديد

— وقد قرأت في كتابك أن الأرض تدور في اتجاه ضد دوران الساعة

— هذا مكتوب في الكتاب

— ولما كان هذا أمرا عجيبا فقد جئت للتأكد منك

— هذا مكتوب

— لكن أحد الناس شككني في احتمال أن يكون هناك خطأ ما

انقلبت سحنته ورمقنى فى غضب :

— هل أنت من أتباع الدكتور الحمار ؟؟

— لا أعرف أحدا باسم الدكتور الحمار !

— حقا ؟!

— بالحقيقة لا أعرفه

— إنه ذلك الجاهل المجهول الذى يدعى العلم أكثر منى ، وينافسنى فى تأليف كتب العلم الأيبوطى .. هل أرسلك لتشويه سمعتى وسمعة مؤلفاتى ؟! هل أنت قريبه ؟؟

— اطلاقا .. لا

— صديقه ؟

— ولا صديقه

— فأنت أحد مأجوريه

وقبل أن أنكر ذلك أتى بحركة قام على أثرها الكلب بالتحفز ضدى وظل يزوم فى وجهى .. شعرت بالخوف لكن الكمامة فى فمه طمأنتنى ، قلت :

— سيدى المؤلف ، لا أطلب أكثر من الإجابة بنعم أو لا .. هل أنت متأكد من أن الأرض تدور ضد الساعة ؟؟

— هذا مكتوب

— فهل أنت متأكد منه ؟؟

نهض وأحضر كتابا ضخما يبدو أنه إحدى الموسوعات العلمية وقال لى :

— سترى أننى على صواب

● كلب المؤلف يتدخل فى المسألة :

... وظل يبحث ويقلب بنرفزة ثم بحيرة وعصبية ، ولا أدرى إن كان قد وجد الجواب أم فشل فى ذلك ، إذ كف عن البحث زهقا .. فسألته :

— هل قرأت شيئا ؟؟

رد فى غضب :

— قرأت ما قرأت أيها البلطجى ، ولا شأن لك به .. حتى لو كانت الأرض ساكنة !! تدور أو لا تدور !! ما شأنك أنت بهذه الأمور المعقدة ؟!

ثم حرض كلبه ضدى فوقفت مزمعا الفرار ، فقفز بثقله نحوى وأرقدنى تحته وظل يحاول نهش جسدى لولا الكمامة .. حاولت النهوض لكنه كان مدربا .. فجاهدت فى مقاومته زاحفا

ناحية باب الحديقة ، بينما المؤلف يتوعدنى مقسما برئيسنا الدبجم راعى العلم بأنه فى المرة التالية سيرفع كامة الكلب . . ورأيت أحد رجال « الهؤلاء » فى الخارج فاستنجدت به لكنه وقف يتفرج على الموقف شغوفا ، ولم يظهر أى تعاطف معى ، وإنما أبدى عظيم إعجابه بمهارة كلب المؤلف . .

● البلف وقراءة الكف وأمور أخرى :

وضع الجرسون أمامى فنجان القهوة الثانى ، وللمرة الثانية نظر إلى مستريبا . . كانت ملابسى متسخة ممزقة من مخالب الكلب الفظيع ، وربما ظننى الجرسون متشردا لا أملك حتى ما أشرب ، لذلك دفعت حسابى وتعمدت ترك بقشيش كبير ، أخذه ولم يشكرنى ومضى . .

أخذت أركز ذهنى لأفكر بطريقة منظمة ، واستغرقت فى ذلك وقتاً لا أعرف قدره تماماً . . إلى أن تنبهت على ورقة تلقى أمامى ، قرأتها فوجدت بها ما يلى : « الواقف أمامك قارىء كف وفنجان متخصص ومنجم ـ يقرأ الطالع ويحسب المستقبل ـ الواقف أمامك هو أول عراف يحسب الغيب على أسس علمية ـ شهادات من الخارج ودراسات متخصصة من بلاد نائية »

نظرت إليه فوجدت ملابس رثة فوقها لحية مشعثة تحيط بوجه شاحب وشفاه متشققة لا توجد إلا مع معدة خاوية . . أعطيته بعض المال القليل كمساعدة فانصرف داعياً لى . .

وعدت أحاول التركيز فى التفكير المنظم الذى كنت قد نويته . . مر بى ماسح أحذية ثم أحد الشحاذين من بعد بائعة المثلجات فمتسولة صغيرة ثم ضرير ثم رجل يحادث نفسه بصوت مرتفع — ولم يكن هناك من يبتسم — ثم وضع رجل أمامى ورقة صفراء قرأت فيها ما يلى : «حبوب الأزواج — مقوى ومفيد يزيل الرطوبة أكيد — من إحليل التمساح وجماة أعشاب لا يمكن الحصول عليها — يمنع ارتخاء الأعصاب عند الشيوخ والشباب — يساعد فى الواجبات الزوجية ويشعر آخذه بلذة لم يسبق لها مثيل — مسجل بوزارة الصحة والحياة الأبوطية تحت رقم سرى — فاطلب العلبة من موزع الإعلان قبل نفاده »

أعدت إليه الإعلان مشمئزا ، وعندما انصرف لاحظت عن قرب رجلا بعين جاحظة يحدق نحوى فكرهت كل شىء ونهضت . . وبعد أن ابتعدت نظرت خلفى فوجدته يتتبعنى فقر رأيى أن أفقده أثرى ، موقنا أنه أحد الهؤلاء . .

وأخذت أراوغه فى منحنيات المدينه حتى اختفى تماماً من ورائى . . . لكنى فجأةوجدته أمامى (قد يكون واحدا آخر شبيهه) . . فجريت بأقصى سرعةوظللت أجرى حتى سمعت هديرا صاخبا يبدو وكأنه صادر من آلاف الحناجر الصارخة ، ففرحت وقلت أستجير بهم ، وتوجهت نحو الصوت . .

● الزمن الضائع :

وجدت الأصوات الهادرة تنبعث من داخل بناية أسمنتية عملاقة شبه دائرية ، كأنها بيت الغول . . وكانت هناك سيارات كثيرة من شتى الأنواع والألوان وشاحنات ضخمة مكتوب عليها : « شرطة أيبوط — فرق تفريق المظاهرات المعادية » . .

بقلب واجف دخلت ، وكلما ارتفع الهدير البشرى فى أذنى كلما تراقصت أحاسيسى . . يمكننى الاحتماء بالناس — هكذا فكرت — وإن وجدت فرصة شرحت لهم الأمر كله وربما تمكنت من إقناعهم .

ثم بدأ يتكشف لى تدريجياً فإذا بى فى ملعب لكرة القدم !

تقدمت مذهولا إلى وسط الاستاد . . عشرات الألوف من المتفرجين المنقسمين إلى جانبين ، كل جانب يصيح فى وجه الآخر ! . . ورجال الأمن متحفزون بالدروع فى مواجهة المدرجات . .

تنبه إلى اللاعبون واحداً تلو الآخر ، ثم الحكم وكان ممتقع الوجه ، ثم وجدت نفسى فى مواجهتهم . . ويبدو أن المتفرجين تنبهوا كذلك إذ بدأ الهدوء يخيم تدريجيا ، وجاء صمت رهيب أصابنى بالرعب . . وكل العيون تنظر نحوى ! !

تمالكت وبدأت أتكلم ، وللأسف فقد كان صوتى ضعيفا ، كنت فى حاجة إلى مكبر صوت كى يصل صوتى إلى هذه الألوف الغفيرة . . وكنت أتكلم بالصوت والإيماءة ، وأشرت إلى ساعتى أكثر من مرة ثم إلى رأسى ، ثم عدت أركز الإشارة إلى الساعة فعادت الجماهير تزوم !! . . وحدث أمر عجيب : أحد الجانبين هلل مؤيدا وهاتفا لى ! فلما توجهت نحوهم سعيدا لأشرح لهم كل الأمور إذا بالجانب الآخر يزوم ضدى ويلقى نحوى بأكوام كبيرة من الطوب وقشر البرتقال وزجاجات الكازوزة الفارغة !!

وعند هذا الحد جريت هاربا . . إلى الشارع ، وأنا فى حيرة من أمرى ومن أمرهم !!

● جاحظ العينين يفسر بعض ماغمض من الأحداث السابقة :

ظللت أجرى وأجرى مبتعدا عن بناية الأسمنت الهائجة بالأصوات البلهاء ، داخلا إلى شوارع تحيطها البنايات العالية من كلا الجانبين ، إلى أزقة ضيقة خالية من الناس . . حتى اطمأننت إلى أننى لم أعد مطارداً ، وكنت ألهث فوقفت أستريح وأغمضت عينى أريحهما ، لكنى تنبهت على سماع أنفاس خافتة عن قربى ، رغم اننى لم أسمع خطوات تقترب ، فتحت عينى . .

كان جاحظ العينين (أو بديله) يرسم ابتسامة لزجة .. قال :

— لقد أثرت فتنة بين جمهور الكرة وحاولت دفعهم إلى التفكير !!

حملقت إليه . . قال :

— هذا اتهامى لك : لقد أحدثت وقيعة بين الكرويين وهم كائنات مسالمة لا تبغى غير التسلية التى لا تجهد الذهن .

وأخذ يشرح فى رتابة — والعهدة عليه — أن المباراة كانت قد وصلت إلى نقطة حرجة ، وكان الحكم فى حيرة من صحة إحدى الرميات وكان يتشاور مع مساعديه إن كان هناك وقت ضائع أم لا . . والذى حدث فى تلك الآونة ان دخلت أنا وظللت أشير بأصبعى إلى ساعتى ، وإشاراتى هذه هى التى جعلت الجميع يصمتون ظناً منهم أننى أدلى برأيى فى مسألة الوقت الضائع . . لذلك هلل الجانب الذى يرى أن إطالة وقت اللعب فى صالح فريقه ، وانهال الجانب الآخر على بالسباب . . وبعد هرولى تطاول بعض من هنا على بعض من هناك وقامت معركة عظمى أدت إلى إصابة أحد كبراء الأمن بحجر فى أنفه فانبعجت . .

ثم وضع الجاحظ أصبعه فى وجهى :

— سوف تتحدث صحافتنا الحرة غدا عن فتنة بين أهالى الكرة أنت مثيرها !

● وشوشة الحبيبة :

دلت بشقتى وقلت أتوب عن الفضول وعن حث الناس على التفكير .

أغلقت الباب جيدا وتأكدت من جميع النوافذ . وبعد أن أطفأت جميع الأنوار رحت أحاول نسيان ماأصابني من عنت وتعب ، بتذكر وجه حبيبتي واسعة العينين . . فبدأت أسمع همساتها الرقيقة في أذني ، توشوش فيها بكلمات الحب ، وتعطيني شفتيها في قبلات راغبة دافئة . . وشيئا فشيئا ومن بين الظلام تجسدت لي ، بابتسامتها الساحرة ذات الغمازتين ، وجاءت إلى جواري ورحت أفك ضفيرتها لينسدل شعرها طويلا رائعاً فوق كتفيها الناعسين ،وأخذتها في حضني وصرنا نتقلب معا حتى انتشينا وتهادينا في نوم هادىء قرير بعد أن اطفأنا النور . . .

● الجاحظون :

. . . لكني تيقظت فجأه على اللمبة مضاءة . . وبعد أن زالت غشاوة النور المباغت فوجئت بسبعة من رجال المؤلاء يحيطون بسريري — أظنهم ثمانية —وكان الوقت ليس كالنهار وليس كالليل . . وكانوا جميعاً من ذوي العيون الجاحظة الذين قال أكثرهم جحوظا :

— باسم رئيسنا الديجم العادل ستأتي معنا

جلست غير مصدق . . فكرر قولته السابقة . . وقلت له :

— هل أنا متهم يا سيدي ؟!

— فلتنهض معنا

احتججت :

ـ بأى حق تدخلون دون استئذان ؟!

ـ إن لم تنهض أخذناك قسراً

ـ فأى تهمة موجهة لى ؟!

ـ لا نعرف . . الرؤساء يعرفون

لم اتحرك من مكانى . . قال فى عجب :

ـ لماذا أنتم قلقون هكذا أيها الشباب ؟! .. لكل إنسان تهمة، ولكل تهمة أدلتها .. دع القلق وانهض معنا وصدقنى بأن لكل إنسان تهمة وأن لكل تهمة أدلتها .

● قالوا قديماً :

نهضت وفتحت النافذة فلم يمانعوا . . وفوجئت بجو خانق لم أعهده من قبل : ضباب ثقيل يخفى السماء ، رطوبة كثيفة بللت ملابسى . . بالكاد رأيت الشارع ، ولدهشتى لم أجده نفس الشارع الذى ألفته ، كان مغايراً تماماً خالياً من كل دلائل الحياة ، تتوسطه على غير العادة بركة طين يتمرغ فيها حمار أجرب !! وعند مدخله سيارة الهؤلاء . . والمنازل المقابلة ليست منازل الأمس !! . .

احترت فى نفسى : لا أعرف هذه الجدران ، ولا رأيت من قبل هذا الشارع ولا هذا المناخ القاتم ، ولا هذه الغرفة . . فأين أكون ؟!

شعرت بكف تهزنى من كتفى . . ورأيت عيناً جاحظة واحدة من أسفلها ما يشبه الفم وسمعت صوتاً ينبهنى :

ــ لا تتلكأ ولا تضع الوقت . . ألم تسمع عن الحكمة القائلة بان الوقت من ذهب ؟! . . وراءنا غيرك .

وكنت قد سمعت عن هذه الحكمة فى المدرسة قديما فتوجهت معهم .

الفصل الثانى

الرجل المضغوط

● غرفة الرجل المضغوط :-

استطعت أن أحصى فى الغرفة سبعة تلفونات ذات الوان مختلفة، وكانت هناك أزرار أخرى من أماكن شتى . . ورغم وجودى منفردا بالغرفة إلا أننى كنت اشعر بأن هناك عيوناً كثيرة تراقبنى . . تفحصت السقف والجدران — كلما رفعت رأسى وجدت صور الديجم تغطى الجدران — والأثاث فاخر . . لكنى مللت من كل ذلك . .

مر وقت طويل ثقيل وأنا وحيد بالغرفة ، بين القلق والحنق . . ثم بين السأم والضيق حتى شعرت بالصداع وبأن الدماء ستتفجر من أنفى . . ثم فتح الباب بهدوء ودخل رجل مضغوط القامة بنظارة سوداء ، حيانى فى ادب جم ثم سار نحو المكتب فلم يصدر عن حذاءيه اى صوت . . وعندما جلس توقعت أن يغوص معظم جسده خلف المكتب ، لكنه بدا وكأنه طويل القامة ، وأدركت أن السر يكمن فى ارتفاع المقعد الذى عوض انضغاط قامته . . وحيانى مرة أخرى .

عندما وضعونى فى هذه الغرفة كنت ثائرا غاضباً أريد أن أعرف سر إحضارى قسرا إلى هذا المكان . . ولما طال الانتظار صرت حانقاً على التمادى فى أهمالى وغاب عن بالى ما سبق ان رتبته من عبارات الاحتجاج والاستنكار . . ثم زاد الانتظار فجاءنى الملل وكبس على النوم وصرت على استعداد لفعل وقول أى شىء للخروج من هذا المكان السقيم بارد الأثاث . .

خلع الرجل المضغوط نظارته السوداء فاكتشفت جحوظ عينيه، وذكرني بالهؤلاء الذين اقتحموا على نومي وأحلامي ، وعلى الفور استشطت غيظا وعاودني الغضب ودبت الحمية في عروقي ، فاستجمعت شتات نفسي واعتدلت له متحفزا :

ـ سيدي بأي حق تحضروني هنا وأنا مواطن شريف ؟!

ارتدى نظارته وقال :

ـ أبدأ فأرحب بك . . أي مشروب تطلب ؟؟

ـ لا أطلب إلا معرفة التهمة الموجهة لي . .

لاحظ غضبي الشديد ، فأشار بكفه كي ألزم الهدوء وهو يهمس :

ـ اسمح لي أن ألفت نظرك إلى أمر هام من أمور الحياة والصحة قد تجد فيها عبرة ما . .

● عبرة من عبر الحياة :

ثم ضغط على زرار أمامه فانطفأت الأنوار وانزلقت أمامي شاشة صغيرة رأيت فوق سطحها عرضا سينمائيا قصيرا ، لشاب قلق جدا ، يتقلقل في جلسته آخذا أوضاعاً عصبية قارضا أظافره أحيانا ، وفي لقطات وجهه المكبرة رأيت عضلاته تتقلص بشكل غريب شوهت سحنته إلى صورة غير مألوفة !

انتهى العرض وقال المضغوط :

ـ ألم تلاحظ أمرا هاماً ؟؟

ـ لاحظت أن هذا الرجل يشبهنى ، فقد كان جالسا على هذه الأريكة وفى نفس هذه الغرفة . .

ـ إنه أنت بالفعل ، وهذا الشريط قد التقط لك أثناء انتظارك . . لكن الغضب والقلق أفسدا سحنتك وجعلا منظارك يبدو فى هذا الشكل ! ! وهذا يعلمك أن لا تغضب أو تقلق !

لكنى رغم هذه العبرة انفجرت فيه طالباً معرفة تهمتى . . فاستدار بمقعده الدوار وأعطانى جانب جسده . .

● متى يتبدل سلوك المواطن ؟؟

. . وبعد صمت ثقيل قال فى تباطؤ :

ـ حتى الآن لا نعرف ما هى تهمتك على وجه التحديد

وقبل أن أعلق قال :

ـ لكن من المؤكد أنك متهم . .

ثم شرح الأمر :

ـ لاحظنا أنك طوال الأيام الماضية كنت تأتى بتصرفات غير عادية ، والمشاهد أنك قمت بتحركات مريبة . . وقد تجمعت لدينا

معلومات كثيرة من « عيوننا » وهم كثيرون ومختبئون فى كل شبر من أركان أيبوط الآمنة ، ومن « آذاننا » وهم أوسع انتشارا لعمق أبواب البنايات وتحت أسرة النوم . . . وجميع هذه المعلومات — لا تقاطعنى من فضلك — وجميع هذه المعلومات تفيد بأن سلوكك قد خرج عن حدود المألوف . . وبحكم خبراتنا فى حماية الأمن فنحن نعرف أن المواطن لا يتبدل سلوكه إلا فى حالتين : أولا عند فشله فى الحب ومروره بأزمة عاطفية حادة يصعب عليه حلها أو مواجهتها ، وثانياً عندما يرسخ فى ذهنه القيام بعمل غير مشروع ، أى يكون فى نيته ارتكاب بعض الحماقات ضد دولة أيبوط الفتية وضد زعيمها الدنجم المحبوب . . لا تقاطعنى من فضلك . . .

● الاتهام :

. . صمت ثم شرب بعض الماء وعاد إلى صوته الرتيب :

— بحثنا عن حالاتك العاطفية فعرفنا أنك برىء منها فأنت ناجح مستريح مع الجنس اللطيف ، لك عشيقة خمرية اللون واسعة العينين ممتلئة الشفتين بضفيرة طويلة ، طولها ١٦١ سنتمترا ، ووزنها حتى الأمس ٥٨ كيلو جرام ، تظهر لها غمازتان فى خديها عند الابتسام . . وإليك بعض صورها . .

ثم مد يده بمظروف ملىء بالصور ، جميعها لحبيبتى ، سائرة فى الطريق أو منهمكة فى عملها أو جالسة فى المترو أو فى بيتها ! ! . .

حملقت نحوه جزعا ، فضحك فى لزوجة ملوحا بمظروف آخر مغلق وصوته يفح كالثعبان :

ـ وهنا صور لها معك عارية فوق سريرك فى أوضاع غرامية مثيرة . . . وعلى فكرة فان فى روعة جسدها وفى بشاشة وجهها الدليل القاطع على تمتعك بذوق ممتاز وحسن اختيار موفق . . عزيزى أنت ذواقة للجمال من الطراز الراقى . . وعلى فكرة فان ذوقك فى الجنس اللطيف يكاد يطابق ذوقى إلى درجة مذهلة ! !

منعنى انفعالى من النطق بأية كلمة .. فأعاد الصور والمظروف إلى مخبئها ، ثم اعتدل مستمراً فى كلامه :

ـ وعلى ذلك فان الاحتمال الأول وهو أن تكون متورطاً فى أزمة عاطفية حادة لا ينطبق عليك . . وتصبح متهما بالاحتمال الثانى ، وهو أنك تنوى القيام بعمل ضار من أعمال الرعونة والطيش ، وهذا ضد القانون .

تماسكت بصعوبة :

ـ كيف تعرف ما يدور فى ذهنى ونيتى حتى تحاسبنى عليه؟!

ـ أعتقد أننى عرضت عليك أفكارى مرتبة ترتيبا منطقيا . . ليس بامكانك أن تنكر أن تفكيرى معك كان علميا . .

ـ وأنا أرفضه رفضاً كاملا

ـ هذا حقك . . وأنا عن نفسى غير متمسك به ، معروف عنى المرونة . . ولكن أليس من واجبى أن أمنع الجريمة قبل وقوعها ؟؟

ـ ... ...

ـ ألا ترد !!

تماسكت . . قال :

ـ نبدأ خطوة بخطوة : الوقاية خير من العلاج ، أصواب هذا أم خطأ ؟؟

ـ صواب

ـ فيكون من الأجدى أن نمنع الفرد من الانحراف بدلا من أن نمسكه بعد ارتكابه الآثام . . أصواب هذا أم خطأ ؟؟

ـ الكلام فى حد ذاته صواب ولكنه لا ينطبق على حالتنا هذه . . لا يمكنك معرفة ما يدور فى ذهنى . .

ـ ومع ذلك فلننس كل ذلك ، واعتبر أننى لم أقله لك ، معروف عنى المرونة . . وأنت حر ولك مطلق الحرية ، وكل الشرائع تكفل لك هذا ، وما نحن إلا منفذون . .

نهضت منصرفاً :

— أشكرك

لكن صوته أمر :

● **إجراء شكلى لا أكثر :**

قال الرجل المضغوط :

— انتظر .. إجراء صغير أتخذه معك وتنصرف إلى بيتك عزيزا مكرما ، وإلى حضن حبيبتك المثيرة التى أحسدك عليها . .

جلست :: ظل صامتا ، لكنى سمعت حفيفا غامضا من قربى ، توترت تماما ثم أدركت أنه من هزات ساقى العصبية . . قال :

— وسننتهى من هذا الإجراء الشكلى بأسرع السبل . .

● **براءة الماضى وعذاب الحاضر :**

سألته عن هذا الإجراء الشكلى فقال :

— لا تؤاخذنى :: العمل هو العمل ، أصواب هذا أم خطأ؟؟

— صواب . . وبعد ؟؟

— علينا أن نتأكد من أنك برىء فيما مضى برىء الآن !

تململت :

— وكيف يكون ذلك ؟!

— لنا ملفاتنا الخاصة وسجلاتنا وصورنا المأخوذة للمجرمين السابقين من شتى الزوايا وفى غاية الدقة ، ولا تؤاخذنى إن بحثنا فيها للتأكد من أنك لست منهما فهل تسمح ؟؟

— لكم هذا . . ولكن أسرعوا

— فعلنا معظم ذلك بالفعل أثناء انتظارك الطويل ، فلم نجد عليك أية شائبة . .

— حسنا . . الوداع

— دقيقة لو سمحت ، فلقد وجدنا بين آلاف الصور التى نقتنيها صورة لأحد المجرمين قريبة الشبه منك

— ما اسمه ؟؟

— دعك من الأسماء فمن السهل تغييرها

ولما رأيت الصورة أصبت بصاعقة إذ كانت لرجل أعور ! ! . . صرخت مستنكرا :

— لكن هذا أعور

— دعك من هذا أيضا ، فأنت تعرف أن العلم قد تقدم فى جميع الفروع ، ومنها علم الماكياج والتنكر

قلت مغتاظا :

- وبهذا المنطق فمن الجائز أن تكون هذه الصورة لك . .؟

ضحك وقال :

- مرح أنت ! ومرن أنا ! !

● حرية الدياجم :

وقفت صارخا :

- أيها السيد كفى أهانات ، كفى ! ! .. أطلق سراحى

- عزيزى . . أرجوك ، لا تنس العبرة التى قلتها لك . . هدىء نفسك ، أننا نهوى الحرية جدا إلى درجة أننا كثيرا ما فرضناها على الأهالى قسرا . . فاطمئن ، وقر عينا . .

● لكل رجل زرار : حكمة أيبوطية :

. . ثم وقف المضغوط وضغط على أحد الأزرار الكثيرة ، فدخل على الفور رجل حاد النظرات فى ملابس مدنية يحمل حقيبة سوداء . . تقدم بالتحية ، فأمره أن يقف قرب الباب ثم استدار لى مبتسما وهو يعود إلى الجلوس فوق مقعده الدوار :

- سيكون هذا الرجل مندوبا لى ، وهو لطيف . . أليس كذلك ؟؟

– أمر لا يهمنى

– وشديد الأناقة أيضا

– لا شأن لى

– ولتكن واثقا أنه بالإضافة إلى ذلك فهو خفيف الظل لطيف المعشر

صار الأمر لا يطاق فغلى الدم فى نافوخى فلم أقدر على الكلام.. وفى هدوء عاد يقول :

– يزعم بعض المحققين السذج بأن الصور لغة عالمية لا تكذب ، ولكن هذا خطأ شديد . . فلقد اتفقت أنت معى ترا بأن هذه الصورة التى أمامى الآن يمكن أن تكون لك أو لى أو لهذا الواقف عند الباب . . أصواب أم خطأ ؟؟

– خطأ

– هذا احتمال واحد ، الاحتمال الثانى أنه صواب . . فكل أمور الحياة يمكن أن تكون خاطئة وفى نفس الوقت صائبة . .

– فليكن هذا أو ذاك ، خلصنى وحدثنى عن هدفك

● **وحدك أو بصحبة الأنثى الفاتنة :**

تقدم مندوبه الواقف عند الباب منى وأوقفنى بينما المضغوط يقول فى لهجة باترة :

ـ سيأخذك هذا الرجل مندوبا عنى فى طواف سريع إلى جميع مخافر الشرطة المنتشرة فى أنحاء أيبوط

أمسكنى المندوب من معصمى . . قال المضغوط :

ـ وسوف يضمن مندوبى الأنيق هذا أن يتم لك فى جميع هذه المخافر عرض قانونى للبت إن كنت مطلوبا فى إحداها أم لا . « تعرف ان الاتصالات الشخصية أجدى وأسرع . :

وقبل أن أنطق جرنى المندوب صوب الباب . . ابتسم المضغوط :

ـ وفى حالة ما إذا كنت غير مطلوب فى أى منها فأنت ـ كما تزعم ـ حر شريف ، ومن حقك الذهاب إلى أى مكان يخطر لك وحدك أو بصحبة الأنثى الفاتنة التى أحسدك عليها . . وبذلك تتحقق العدالة ونكون قد حميناك وحمينا الأهالى الشرفاء . . أليس كذلك ؟؟

● الهوة فى كل خطوة تالية :

جرنى المندوب غصبا وأنا أكاد لا أصدق . . إلى أن وجدت نفسى فى ممر خارج الغرفة ، ظل ينحدر وينحدر حتى صار سردابا يردد صدى خطوات المندوب ويجسد أنفاسى المرتبكة ، فاقشعر كل بدنى . . واختفت معظم فتحات الإضاءة ، فتملكنى دوار مفاجىء جاءنى بصداع ثقيل ، وصار السرداب معتما تماما ،

والمندوب يدفعني أمامه .. فارتعشت قدماي وظللت أتوقع الهوة في كل خطوة تالية .

ثم دخل في روعي أنني أسير بقدمي إلى أعلى ورأسي مدلى إلى أسفل ، تخيلت نفسي مقلوبا في هذا الوضع ورأيت أنه غريب مضحك فضحكت وردد السرداب ضحكاتي ، لكني بعد أقل من البرهة بدأت أشك أن صوت هذه الضحكات هو صوتي أنا .

الفصل الثالث

طواف المخافر

● **جزء مما حدث فى المخفر الأول :**

بين الدوار والضيق وفى بحر الظلام ظللنا نتلمس طريقنا ، حتى لاحت لنا مساحة من الضوء الأزرق الخافت تشكل فتحة مستطيلة بين درفتى باب موارب .. دخلنا فى صمت لنجد الركود وصوت أنفاس خافتة ، وشرطى يغط فى النوم ساندا رأسه فوق ترابيزة المخفر ، ومن فوقه صورة « الدجيم » .. فتح عينه اليمنى ثم أغمضها وزام فسأله المندوب :

— هل تعرف هذا المواطن ؟؟

ودون أن يفتح عينيه :

— لا

أهو مطلوب لديكم فى أية تهمة ؟؟

- لا

- أواثق من كلامك ؟؟

— نعم .. أتركنى

ولما طلب المندوب منه أن يكتب هذا الكلام ويوقعه ويمهره بخاتم المخفر الرسمى ، أفاق الشرطى وظل يتفحصنى ، نهض وأضاء عدة لمبات إضافية وحام ودار حولى ولم يبد عليه أنه يعرفنى

فجلس ليكتب « شهادة براءة » لى .. لـكنه قبل أن يوقع ـه
تردد وقال للمندوب :

— توقيعى وحده لا يكفى ، تعرف هذا ؟

سألته :

— ألست مسئولا عن هذا المخفر ؟؟

— لا تسأل أنت .. وعلى كل حال فأنا لست وحدى هنا
يشاركنى ثلاثة زملاء آخرين ولابد من الحصول على تواقيعهم
قبل مهر الشهادة بخاتم المخفر ..

— وأين هم الآن ؟؟

— واحد يأتى بعد نوبتى ، والثانى بعد انتهاء نوبة التالى لى
والثالث بعد التالى للتالى لى .. فلكل واحد منا ربع يوم

ثم وقع .. وقال لى :

— بتوقيعى هـذا فأنت برىء فى ربع اليوم الواقع فى
اختصاصى .. ناقص إثبات براءتك فى ثلاثة أرباع اليوم الباقية .

وعاد يركن رأسه فوق الترابيزة لينام ، فسأله المندوب عن
مكان نبيت فيه .. أشار له إلى أريكة قريبة ، أما أنا فقد فتح
بابا ثقيلا أدخلنى منه وأغلقه من ورائى ..

● في الحبس :

.. بعد أن تعودت عيناى على الضوء الخافت تبينت أننى في غرفة الحجز ، أدركت ذلك من كثرة المحجوزين داخلها ، من شتى الأعمار .. منهم من استلقى بجوار الحائط ومنهم من جلس محملقا ، وعجوز واقف في صمت قرب الكوة الحديدية ..

حدثت نفسى أن أكون حذرا وأنا بين أربعة جدران مع عشرات من المجرمين ، ولعنت في سرى جميع الهؤلاء الذين أحضرونى إلى مثل هذا الوكر الموبوء ..

تراجعت خطوة فكدت أتعثر فى كومة ما خلفى ، تلفت متحفزا فوجدت أسفلى وجها لصبى ينظر لى من عينين مليئتين بالدموع وقد تقرفص متكوما يرتعش ..

انزويت قرب الباب وأنا أحملق إليه فسمعت عن يمينى من يقول :

ـ لم يكف عن البكاء منذ جاءوا به ، فشلنا فى تهدئته

ـ ما تهمته ؟؟

ـ مظلوم .. مثلى تماما ..

هتف الشيخ الواقف عند الكوة الحديدية :

— الجميع تقريبا مظاليم ، وكم فى الحجز مظاليم !

لكنى حذرت نفسى أن ألزم الصمت وأن لا أدخل مع هؤلاء المجرمين فى حديث ، إنهم خارجون على القانون بلا شك ، وكل من فى الحجز يدعى أنه مظلوم ..

وبرغم رطوبة الأرضية ورغم الهواء الراكد العطن — أو ربما بفعل كل هذا — فقد غفوت فى النوم لعدة ثوان أو دقائق .. ولا أدرى ما الذى جعلنى أستيقظ عند الفجر هامسا لنفسى : لكننى فى الحجز الآن رغم شدة براءتى ؟!

● أوصال البراءة :

جاء الشرطى الثانى وتفحصنى مليا ثم وقع على وثيقة البراءة فصرت بذلك بريئا فى نصف يوم .. وبعده بست ساعات أخرى جاء الثالث ووقع فصارت براءتى لثلاثة أرباع اليوم .. وبعد ذلك مرت ست ساعات أخرى بطيئة قاسية ، اكتملت لى بعدها براءتى .. ومهرت الورقة بخاتم المخفر وتسلمها المندوب ، الذى وقف على عتبة باب الخروج ثم قال لى :

— ليس هذا إلا مخفرك الأول ..

● **نظرا للنجاح الساحق :**

سألت المندوب عن عدد المخافر التى يجب أن أعرض عليها فقال :

– جميعها

– كم عددها ؟؟

– بالضبط لا أعرف، يتغير عددها كل يوم، فكلما تأكد نجاح المخافر الموجودة كلما أقيمت مخافر أخرى جديدة ! .. وتلك هى رأس الحكمة ..

دهشت وفى ذهنى ليلة الأمس المزعجة وأرضية الزنزانة الرطبة، فقلت :

– لعلك ارتحت فى النوم ليلة الأمس ؟؟

– لا بأس

– أخشى أن يكون نومك فوق الأريكة الجلدية لم يكن مريحا !!

أشاح دون اهتمام .. ثم فهمت منه أنه سينال عن كل ليلة يقضيها فى رحلتنا هذه ما يعادل أجر يوم إضافى وذلك كبدل مبيت، ولكنه سينام فى المخافر من باب الاقتصاد .. قال :

– وبمجموع هذه البدلات التى سوف أنالها بسببك سوف يمكننى قضاء شهر فى أفخم مصايف البحر مع امرأة مثيرة شهية..

قلت له أن ذلك يسعدنى . لكنى فى نفسى خشيت أن يتعمد إطالة مدة تجوالنا جريا وراء المزيد من البدلات المالية .. وسألته فى حذر :

– كم تظن عدد الليالى التى تكفى بدلاتها نفقات شهر مصيفك مع المرأة المثيرة الشهية ؟ ؟

فكر قليلا ثم رفض الإجابة قائلا بأنه يأنف عن الحديث فى المسائل المادية الزائلة . .

● ليس إلا :

فتح المندوب حقيبته السوداء ، ووضع فيها ورقة البراءة الجديدة الممهورة بشعار المخفر الثانى فانضمت إلى الورقة الأولى .. وقال :

– وهذه ليست إلا براءتك الثانية

ومضينا من حى إلى حى .. ودخلنا من أبواب متشابهة لتزكم أنفى ذات الرائحة ، ولأبيت مع بعض المظاليم .. ثم لنخرج منها ثانية ، وليتوقف المندوب على عتبة كل مخفر ويفتح حقيبته السوداء فى حرص شديد ويضم ورقة براءتى الجديدة إلى الورقات السابقة ..

تجشأ وقال :

- ليست هذه إلا براءتك الثالثة ..

أغلق الحقيبة وقال :

- وهذه ليست إلا براءتك السابعة ..

وفى المخفر العاشر تم عرضى على بعض المدنيين أيضا وذلك بالإضافة إلى ضباط الورديات الأربعة . . وفى المخفر التالى شد أحدهم شعرى لاتأكد من أنه حقيقى ، وتحسس أحدهم صدرى خشية أن أكون امرأه فى زى رجال رغم ذقنى وشاربى الطويلين ! ... وفى ثلاثة مخافر على الأقل تم توقيع الوثائق دون فحصى ، والذى تلاهم ، فعل المثل قائلا أنه يثق فى دقة الثلاثة السابقين ..

ابتسم المندوب :

- وليست هذه إلا براءتك رقم ٢٣

وكلما زاد الرقم انتعشت نفسى وزاد سرورى من دنو ساعة الخلاص من هذه الورطة الوضيعة ، وتراقص أملى فى اقتراب العودة إلى حضن حبيبتى واسترداد حريتى . . ولعنت دوران الأرض ودوران الساعات ودوراتى أنا على المخافر الأيبوطية القذرة ..

وفى نفس الوقت كنت ألاحظ تهلل وجه المندوب زيادة لياليه المستحقة لبدلات السفر وبعد أيام وعلى عتبة المخافر وقبل أن يغلق حقيبته ، بادرته أنا :

— وهذه ليست إلا براءتى رقم ٣٩

فبرقت عيناه ، ثم سرعان ما وضع قناع اللامبالاة.. بى إلى المخفر التالى وترتيبه الأربعون .

● **بعض الخواطر حول رقم أربعين :**

ونحن متوجهون إلى المخفر رقم ٤٠ أخذت أتذكر س الرقم عند معظم الشعوب ، فهناك على بابا والأربعين - وهناك الغرفة رقم ٤٠ فى القصر المسحور والمحرم دخو وهناك أيضا الاحتفال بمرور الأربعين يوماً على الوفاة ..

قال المندوب :

— بهذا المخفر سوف نترك هذه العاصمة ونطوو المخافر المنتشرة فوق أراضى أبيوط المترامية ..

ولما تحرك بنا القطار الضخم بدأت المنازل تتراجع بيوت ضخمة يسكنها أناس فى ثياب عصرية وأفكار عتيقة الخارج براق والداخل كهف له سراديب مظلمة معنكبة .

فوجئت بالمندوب يحذرنى :

— لا تجدف . .

فنظرت إليه فزعا ، ولم يكن يتأمل المناظر الخارجية ولا تلك البيوت الضئيلة التى أخذت تتباعد أيضا . . لقد قام بمثل هذه الرحلات مرات عديدة ولابد ، ولا شىء جديد عليه إلا أن .. سألته :

— ما رأيك فى الذين صحبتهم من قبلى ؟؟

فرد فى اقتضاب :

— جميعهم أمثالك ..

وسكت .. فتذكرت أمراً غريبا مر على فى محطة العاصمة : :

● **خلاصة الأمر الغريب :**

. . فعندما كنا نتجه إلى رصيف قطارنا لاحظت تواجد أزواج كثيرة من الرجال ، وبعض أزواج النساء ! ! .. رجلان رجلان أو امرأتان امرأتان ! ! .. وعلى جميع الأرصفة التى تتفرق قطاراتها إلى أنحاء البلاد المترامية ، فماذا يعنى هذا الوضع المعكوس ؟ ! .. رجل مع رجل وليس رجل مع امرأة ؟ ! ..

وللحظات شطح خيالى إلى وجود علاقات جنسية مثلية !! ..
فهل صارت تلك هى القاعدة بحيث يرافق الرجل ذكرا مثله
وتمتطى المرأة أنثى من نوعها ؟!

لكن زحمة المكان وهرولتنا أطارت الموضوع من رأسى إلى
أن تذكرته ثانية !!

وبعد وقت حدثت نفسى بأنى ومرافقى رجلان فهل معنى
ذلك وجود علاقة جنسية بيننا ؟ ! . . وعند هذا الحد تذكرت
أمراً آخر أصابنى بصداع ثقيل : تذكرت أن مرافقى كان يحيى
أحد أفراد كل زوج ويتجاهل الآخر ! .. كذلك فعل مع النساء ،
كان يومىء رأسه بتحية مهذبة لإحدى المرأتين متجاهلا الأخرى !

الآن أفهم .. أن الذين حياهم كانوا يشبهونه إلى حد كبير ،
فهم إذن مندوبون مثله .. أما الذين تجاهلهم فكانوا يشبهوننى إلى
حد المطابقة : الحزن والحنق والاحساس بالقهر .

هممت بسؤاله من باب التأ د ن كان يوجد رجال غيره
يقومون بمثل هذا العمل ؟؟ فاذا بة يقول مندهشا :

ـ طبعا يا أخى !!

ـ معنى هذا أنه يوجد متهمون آخرون غيرى يطاف بهم
الآن ؟.

— طبعا يا أخى . . هل تظن أنك فريد عصرك ؟ ! هل أنت مغرور ؟ !

● لماذا كان المخفر الأربعون مختلفا عن جميع ما سبقه ؟؟

قال المندوب :

— هذا المخفر رقم ٤٠ يختلف تماما من ناحية أسلوب ضابطه فى العمل ، فهو شغوف جدا بالكلاب البوليسية ، لا يثق فى آراء المساعدين من بنى البشر ، يقول دائما بأن الإنسان يكذب بنفس سهولة تنفسه ، أما الكلاب فهى لا تكذب ولا تخون ، وعلى الأخص كلابه البوليسية التى أحسن تربيتها . :

— أنا لا أكذب ومع ذلك فأنا إنسان ! !

ضحك ثم سكت ثم ضحك :

— قد تكون صادقا فى كلامك . . ولكن : أحقا تعيش عيشة الإنسان ؟

توقف وأحسن من هندامه :

— على كل فأنت فى هذا المخفر لست بحاجة إلى الحصول على براءة عن كل ربع يوم ، ستعرض عرضا قانونيا على كلابه

البوليسية ، فان أفتت جميع الكلاب بأنك بريء انصرفنا على الفور .

— هذا أريح

— ألم أقل لك ؟؟

كلاب الأعجمية :

أوقفني ضابط المخفر فى صف طويل من الرجال (عرفت فيما بعد من المندوب بأن عددهم يكون دائما ٣٩) . . وبعد أن اطمأن إلى استقامة الصف ، وبعد أن قام بتفتيش كل واحد منا بحثا عن شيء ما ! (علمت فيما بعد أنه يخشى أن يدس أحد الرجال مواد نفاذة الرائحة تفسد من حاسة الشم عند الكلاب) : . التفت الضابط إلى مرآة خلفه متأملا أناقته طويلا ثم أدى التحية لصورة أعلى المرآة تمثل الدبجم وتحت قدميه كلب هائل ، وبعد ذلك توجه إلى باب مجاور تنبعث منه موسيقى حالمة ، فتحه ونادى بصوت رقيق على اسم معين ليخرج إلينا كلب طويل السيقان ممدود البدن ، مشى يتهادى نحو صاحبه الذى بادله نظرات الحب وربت على رأسه . . ثم أشار له فبدأ يشم رجال الصف واحداً بعد الآخر ، مر سريعا على المجموعة المتطرفة ،وقبل الوسط تمهل أمام أحد الرجال فرأيت وجهه ينفعل ويحمر فى

سعادة !! ودهشت لأنه لم يصب بالخوف بل لقد استاء عندما تركه إلى التالى فمن يلى التالى !! . . وهكذا حتى وصل عندى . .

تشممنى الكلب الهائل فتوترت أعصابى ، ودقق فى تشمم رائحة حذائى (الذى كان قد بدأ يتهرأ من طول المشى) .. ثم ارتد الى الخلف بحيث شملنى كلى فى نظرة واحدة ، فعرقت وتوترت وعلى الفور قفز نحوى !!

زام الضابط :

– عظيم !!

ثم وضع إشارة فى ورقة أمامه .. هتفت :

– إننى أعترض على هذه النتيجة

فألزمنى بالتزام الصمت . . وداعب كلبه وصرفه . . ثم استدار ليتأكد من هندامه قبل أن ينادى على اسم آخر ، ليخرج كلب مبرطش الفم لا يكاد يعلو عن الأرض .. ركع له الضابط ليقبله ثم أعطاه أمر البدء ، وبدون مجهود يذكر هجم على الكلب القمىء !

أردت أن أعلن احتجاجى فأنذرنى بالجلد . . وتكرر ما حدث مع سبعة كلاب أخرى ، لكل واحد منظره وطوله وارتفاعه

وطريقته الخاصة فى الهجوم نحوى والأخذ بتلابيبى ! ! . . وعند ذلك جاهرت محتجا :

— أنا لست مجرما .. لست مجرما

اندهش الضابط :

— ومن قال ذلك ؟ ! إن فحصك لم يكتمل بعد ! !

— ولكن جميع هذه الكلاب اللعينة ....

— حذار أن تخطىء فى حقها . . إنها كلاب أعجمية ليست من ملتى وليست من ملتك فهى منزهة عن التحيز ..

ثم أمر بادخالى إلى زنزانة صغيرة لها أربع درجات تحت سطح الأرض ، وأدهشنى أنه لم يصرف الرجال الآخرين الذين لم تطلبهم الكلاب بل أدخلهم زنزانة أخرى واسعة الباب . .

وقد أفهمنى المندوب بأن هناك مجموعة أخرى من الكلاب لابد أن أعرض عليها ، وأنها لم تتمكن من المجىء لأسباب مختلفة — وهذا من سوء حظى — فواحدة منها أصيب باكتئاب نفسى وآخر تأخر فى النوم ولم يجرؤ أحد على إيقاظه ...

وعندما أغلقوا الباب من ورائى وجدت نفسى فى ظلام أكيد ..

الفصل الرابع

نقوش المخفر الأربعين

● في البدء ...

وجدت الزنزانة صغيرة معتمة ، عدا بقعة ضيقة من نور النهار منسابة إلى الحائط من كرة صغيرة علوية . ولا شيء آخر إلا الظلام والرطوبة والصمت ..

جلست على الأرض قرب شريط النور الواهي ، حانقا متهوراً .. ظننت أنني سأنتهي من هذا المخفر بسرعة ، وأنا الآن لا أدري متى تشفى كلاب الضابط من وعكتها ، ولا متى تتعدل نفسية الكلبة المكتئبة مزاجيا ؟ !

والمؤكد أن أملي في النجاة صار ضئيلا بعد أن تعرفت على جميع الكلاب السابقة ، واعتراضاتي على خطئها لن تجدى لأن صاحبها لن يصدقني ليكذبها ! !

حاولت الهروب من واقعي الثقيل إلى ذكرياتي اللطيفة ، بلا جدوى ! .. لكني - وبمجرد آن جاءني من الطريق صوت الناس والعربات والأطفال والباعة - وجدت صوت حبيبتي يداعب سمعي . . ترى أين هي الآن ؟ ! . . كان موعدي معها الليلة التي أخذني فيها « الهؤلاء » . . كم أحن إلى همسات حبها وأناملها الناعمة تداعب شعري في ود .. لكني تخوفت من تلميحات الرجل المضغوط عنها ، ومن صورها التي يحتفظ بها داخل المظروف ..

نكست رأسى .. ولوهلة خلت أننى سمعت صوتا قريبا ، حملقت فى الظلام فلم أجد شيئاً ملفتاً .. وتمنيت لو تمكنت من النظر إلى الشارع من الكوة العلوية ..

ثم لفتت نظرى كتابات محفورة على الجدار الساقط عليه شريط النور ، وأدهشنى أنها تبدو حديثة الحفر ! .. فهل هناك من يشاركنى هذا الجحر الآن ؟! وهل يكون نائما الآن ؟! .. همست :

— هل من أحد هنا ؟؟

انتظرت ولم أسمع ، فرحت أحاول قراءة النقوش المحفورة ، وكان الأمر صعباً لرداءة الخط ، لكنى ميزت بعضها : « انظر ! .. فى البدء كذب الدياجم ... » ...

وقبل أن أحاول الإكمال رأيت ظل شبح يقطع شريط النور متحركا ، رفعت رأسى إلى الكوة فلم أجد أحدا ، ثم سمعت الأنفاس إلى جوارى ، ورأيت الرجل ..

● .. ومنذ الأزل :

تراجعت منزعجاً ، وكان ظهره للنور فلم أكد أراه إلا شبحا .. تحايلت مستديرا من حوله فى نصف دائرة بحيث دار

منى فجاء النور فى وجهه ورأيته . . ويا للعجب : بصعوبة يتأكد المرء أن هذا فى الأصل كان وجه إنسان ! ! .. سألته :

— من أين دخلت ؟! .

قال :

— من أين أنت دخلت ؟! أنا موجود هنا منذ الأزل . .

— منذ الأزل ؟!

— هكذا أشعر .. أليس الإحساس بالزمن نسبيا يختلف من إنسان لآخر حسب المزاج الخاص والواقع المحيط ؟!

وكان مشعث الشعر والذقن وصوته مرتجفا وجسده دائم الاهتزاز :

— عندما تمكث طويلا وحدك فى مثل هذا الجحر فانك ترتبك وتفقد قدرتك على الإحساس بالزمن وعلى تمييز الاتجاهات ، ويختلط الماضى بالحاضر والوهم بالواقع . وتظن أن الأيام أعوام .. إننى أنام فى الليل لأستيقظ بعد وقت ، دقائق أو ساعات ! .. ظنا منى أن الصباح قد جاء ، ثم أكتشف أننى ما زلت فى الليل وربما فى أوله .. أنام مرة أخرى وأستيقظ ظنا أن هذا الصباح قد حان وقته .. وهكذا عدة مرات كل ليلة ..

وعند الصباح الحقيق تختلط الأمور فى ذهنى فأحتار : أى يقظة كانت الحقيقة ؟! وهل كانت جميع هذه المرات خادعة أم بعضها فقط ؟! .. ولا يهمك إن تعرف، إن الحقيقة هنا غير ذات أهمية .. وتفقد الليلة الواحدة واحديتها . ، وكذلك الحال مع النهار .. انظر ! فى هذا الجحر لا يميز النهار عن الليل إلا شريط النور هذا ..

ابتسم فى مرارة :

ـ لكنى فى الأيام الأولى كنت أهب مذعورا فى الصباح الباكر ، ظناً أننى سأتأخر عن ميعاد العمل !! .. وتمر ثوان كى أتذكر أننى هنا .. لكن حدثنى عن وضعك وعن الخارج ..

فلما حكيت له أطرق بائسا ، وسألنى إن كان لى أحباب فى الخارج يقلقون بشأنى فذكرت له أمر حبيبتى ذات الهمسة الآسرة .. فهمس :

ـ أنا أيضاً كانت لى حبيبة ذات همسة آسرة

ثم دفن رأسه بين ذراعيه وساقيه وصار يرتجف كصخرة سوداء تتزلزل الأرض من تحتها ..

● أقوال أخرى لسجين الجحر :

وبينما هو يرتجف أكملت أنا قراءة النقش المحفور : « انظر .. فى البدء كذب الدياجم .. ثم الملاك والتجار .. ثم الساسة والمثقفون .. انظر : ففسدت الرعية وعم الفساد بأرجاء البلاد».

وعجبت لأنه أضاف المثقفين إلى هذه القائمة ، وتذكرت للتو حادثة الأديب النصف معروف معى وحديثه عن الساعات وعن رعب المثقفين من الهؤلاء .. ثم عدت إلى النقش المحفور وفكرت سائلا نفسى : لماذا يكذب الانسان ؟! ثم أجبت : يكذب الانسان لضعف ما بداخله ولضغط ما من خارجه .. تبدأ المأساة بفساد الدياجم فيضغطون ، وبعدها يفسد الضعفاء ، وهناك طبعا من يقاومون وهم من يجعلون للحياة طعما مقبولا ، فهم ملح الأرض .. لكن هناك دائما من يتملقون السلطة ويرضخون للهؤلاء عارضين أنفسهم وحول أعناقهم لافتات كتب عليها : « للايجار » .. فالحاكم أقوى ومعه الأمر والنهى والمنح والمنع .

● أصل البلاء :

تماسك السجين ورفع رأسه .. فسألته :

ــ هل أنت حافر هذا النقش ؟؟

أومأ .. سألته :

— فى رأيك إذن أن الكذب هو أصل البلاء ؟؟

— ليس وحده ، لكنه بكل أنواعه وتدرجاته أصل البلاء .. انظر لما يكتب فى الجرائد والمجلات وقد صارت نسخا متماثلة ، استمع لما يذاع بالراديو والتلفزيون ، الفجاجة والرياء واستغفال الناس .. كل الحياة صارت كذبا ونفاقا .. انظر عندما يتخذ الديجم قراراً ستجد الأقلام تتبارى فى تأييده ، فاذا تراجع عن هذا القرار فان نفس هذه الاقلام لا تخجل من تبرير هذا التراجع .. إن الصحفيين فى دبار أيبوط ليسوا إلا مبررين .. انظر عندما ينوى الديجم إصدار بيان ، تظل الجرائد تبشر بهذا البيان : « الديجم يذيع بيانا على الناس بعد خمسة أيام - العالم كله ينتظر بيان الديجم بعد أربعة أيام — العالم يترقب بيان الديجم بعد يومين - غداً البيان التاريخى — اليوم يذيع الديجم بيانه على كافة الموجات القصيرة والمتوسطة - نص البيان الخطير — إصداء واسعة للبيان التاريخى — استمرار الأصداء الواسعة لليوم الثانى » .

التقط أنفاسه ثم سألنى :

— قل لى ماذا تسمى هذا ؟؟ .. لقد تعمدت الاستماع إلى إذاعات الدول الأجنبية عقب إحدى هذه البيانات الخطيرة مباشرة

فلم أجد إحداها تشير إلى هذا البيان ! ! . : انظر إذن : ألسنا كالمراهق المحروم الذى يستمنى على روحه فيضاجع أحلى البنات فى خياله وبالوهم ! !

● **أظنه رمسيس الثانى :**

عدت إلى تأمل الكلمات المنقوشة فى خط ردىء وفى سطر مائل إلى الانحدار .. وقلت :

– قرأت أن المصريين القدماء كانو يحفرون أقوالهم وأخبارهم على الصخر والجدران ، مثلك هكذا ..

قال :

– كانوا يهوون هذا بالفعل . . إننى مغرم بقراءة تاريخ هذه البلاد المسماة مصر . . وبمناسبة ذكر قدمائها فإننى قرأت عن فرعون حكمها منذ آلاف السنين ، وأظنه رمسيس الثانى ، هذا إذا لم تكن ذاكرتى قد تشوشت من هذا الجحر . . ادعى هذا الملك بأنه قد هزم الحيثيين فى معركة قادش . وسجل هذا الادعاء فى مناظر ونصوص فوق كثير من معابد مصر بينما نعرف أن أعداءه قد أخذوه على غرة ، لولا نجدة قائد جيشه له :. لقد غطى على حقيقة وقوعه فى الفخ باحتفال هائل بشجاعته زاعما أنه وحيد وليس معه أحد حتى جيشه ، قال وحيدا وليس معه أحدا ! ! .: وبلغ من جرأته أنه أمر الحفارين (وهم الصحفيون

والإعلاميون فى زمانه) بنقش أنباء بطولته الفردية حتى على معابد أجداده وصخورهم ! ! . . فكان بذلك من كبار مزورى التاريخ . . ثم مضى يشيد لجسده القصير تماثيل صخرية شاهقة تطاول طوله الحقيقى عدة مرات ليعوض قصر بدنه ونقيصة نفسه . . انظر : لقد حكى لى بعض السياح الذين زاروا مصر أخيراً أنهم رأوا أحد هذه التماثيل رؤية العين وقد أعيد تشييده فى ميدان المحطة بالقاهرة . . . وعلى كل حال فان هذا الحاكم لم يكن الأول فى التاريخ كما أنه لم يكن الأخير الذى زيف الحقائق . . إنه الكذب . . أو على الأقل : المبالغة !

● لكل واحد سعره :

قلت :

— أشعر أن الذى أتى بك إلى هنا هو إنسان كاذب .

— كاذب جاء من مضاجعة رجل كاذب لا مرأة كاذبة فى ليلة زائفة ، فجاء بكف قصير واهن الضغطة عند التحية ، وبطاقة على إفراز كتابات لا أول لها ولا آخر ، لا تعنى شيئاً . . سمعته مرة يتشاحن مع أحد المثقفين فيهدده قائلا : « تعال معى إلى أقرب مخفر كى أعرفك من أكون » . . تصور ! ! لم يقل تعال معى إلى أقرب بيت ثقافى ! ! . . أليس هذا دليلا على تعامله

مع الهؤلاء ؟ ! . . إننى كلما تذكرت عبارته هذه تأكد لى أنه قد وشى بى كذبا ، لأظل حبيس هذا الجحر بعيدا عن حبيبتى . . .

ثم مضى بعد ذلك يحدثنى عن حبيبته هذه . . فشرد ذهنى إلى فتاتى الخمرية ذات الضفيرة الواحدة ، واستعدت ضغطة كفيها فوق ظهرى تشدنى إلى حضنها الراغب وهمسة شفتيها ووشوشاتها المنتشية . .

وبعد ذلك شرح لى ما وصل إليه حال المثقفين المستقرين ، تم شراء معظمهم ، لكل واحد سعره حسب قيمته وحسب مقدار أكاذيبه التى تؤثر فى الناس ، فإن استنفدوا الغرض منه تم ركنه فى داره ، فلا يجد من يتذكره لأنه يكون قد فقد احترام الجميع وحبهم . .

ثم قال لى :

— ومن لا يخنع لسلطة الدياجم فمصيره معروف . .

صمت . . ثم قال فى غل :

— انظر . . أنا لم أداهن ؟.

● **المسألة النسبية : :**

فرحت أتأمل الجحر الذى آل إليه :. قال :

– انظر : هل تعرف أن هذا البطش يزيد من تخلفنا الحضارى وبالتالى يزيد من تبعيتنا لمن هم أكثر تقدما ؟! .. انظر : فالجهلة فى ديارنا يسيطرون على كل الأمور ولا يجرؤ أحد على قول ذلك ! ! .. وهم يحقدون على المثقفين لعلمهم ، وبسبب هذا العلم فهم يخشونهم ، لذلك يضطهدونهم وينكلون بهم إلى أن يهاجروا أو يصمتوا أو يتدروشوا .. وفى جميع هذه الحالات يسود الجهل ويصبح سلوكا يوميا ، وتتفشى الغوغائية ، ويسرى الدجل والكذب إلى جميع الأمور حتى يتسلل كالسم البطىء ، متسربا إلى نفس العلماء فيتخلخل علمهم . . . والمسألة نسبية ، انظر : إننا نتقدم فى بطء شديد ، بينما الدول المتقدمة تركض قفزاً إلى الأمام ، وبذلك فإن المسافة بيننا وبينهم تزداد يوما بعد يوم .. فما بالك إن كنا نحن لا نتقدم أصلا ؟!

تنهد :

– هل تعرف ماذا كانت غلطتى ؟؟ . . لقد قاومتهم بمثالية المثقف الذى يرى للحقيقة أكثر من وجه ، فيها الأسود والأبيض وما بينهما ، بينما هم حاربونى من منطق : من ليس معنا فهو ضدنا ، والغاية تبرر كل الوسائل . . انظر : لذلك لم يتورعوا عن استخدام جميع الوساخات معى !!

ظل يضرب الأرض بقبضته غيظا .. ثم قال :

– اعذرنى إن كنت تجدنى لا أكف عن الكلام ، الوحدة مميتة ونادراً ما أجد إنساناً يسمعنى ، فاعذرنى . . وحدثنى عن جريرتك أنت .

قلت :

– أكاد أفهم الآن .. إننى لم أعارضهم عمليا ، لكننى فى نفس الوقت لم أؤيدهم ، فصرت عدوا لهم حقت على لعنة الاعتقال والطواف بعموم مخافر أيبوط . .

● أقوال أخيرة له :

عقب ذلك دام الصمت الثقيل حينا ، زادته ثقلا تلك التنهدات المقهورة التى كانت صخور الجحر تزيد من كتمانها .. وظل الحال على هذا المنوال إلى أن سمعت صرير الباب ، حيث جاءوا ليأخذونى إلى العرض الثانى على باقى مجموعة الكلاب . :

وقفت محتارا : كم من الوقت مكثته فى هذا المكان بالضبط؟؟ ثم لاحظت أن السجين لا يبعد عينيه عنى ، قال بنظرة كسير :

– عندما تحارب الأوساخ فعليك أن تستخدم أساليبهم ، وإلا فإنهم ينتصرون عليك ، ثم يشوهون حقيقة أفعالك لأن المنتصر هو الذى يصل صوته إلى الناس ، أما المهزوم . . . .

وهذه المرة كان هو الذى أخذ يتأمل ظلام الجحر .. ثم أضاف فى أسى مرير :

— إن جاء اكتشاف العبرة متأخراً فهى لا فائدة منها ! !

وكان قوله حقا . . كذلك قال :

— وإن ضربك ملاكمك تحت الحزام فاضربه فى أى مكان تطوله وبأى سلاح ..

استعجلنى الشرطى للخروج فعرضت على السجين البائس أن أنقل منه أية رسائل إلى أعزائه فى الخارج ، فقال إنه يتمنى أن يرسل بعض كلمات الشوق إلى حبيبته ، غير أنه اكتأب :

— لكنى لست واثقا من أنك ...

ولم يكمل

● **كيف تعرف الكلاب ! ؟ :**

تعرفت على الكلاب الجديدة ، جميعها .. فهيأت نفسى للعودة إلى جحر صديقى الذى نسيت أن أسأله عن اسمه .. وتوقعت أن يصرف الضابط باقى رجال العرض ، لكنه فاجأنى بادخالهم الزنزانة الكبيرة ! ! .. ثم مهر ورقة براءة بشعار مخفره وأعطاها للمندوب المرافق لى الذى حياه وسبقنى إلى الخارج ، فتبعته مذهولا لا أفهم شيئا !

وعلى عتبة المخفر أضاف الى الشهادات السابقة هذه الشهادة الجديدة التى ليست إلا رقم أربعين ، هذه المرة براءة باجماع جميع الكلاب .:. لكنى كنت مندهشاً ، سألته :

ـ كيف تركنى الضابط رغم تعرف الكلاب على ؟ !

ـ لهذا السبب أفرج عنك ، فهذه الكلاب لا تتعرف على المواطن المذنب وإنما على المواطن البرىء .

ـ هذا ما لم أسمع عنه من قبل !!

ـ ألم أقل لك أن هذا الضابط وكلابه شىء مختلف تماما .

ثم شرح الأمر . . فى البداية درب الضابط كلابه على التعرف على المذنبين ، فلما وجد أن عددهم يتزايد باستمرار خاف على أنياب كلابه المدربة ، فقرر أن يعكس تدريبها بأن تتعرف على الأبرياء ، ثم خصص كل كلب لنوع معين من أنواع البراءة ، فواحد مهمته اكتشاف البرىء من السرقة ، والآخر للبرىء من القتل والثالث من التفكير وهكذا ...

قلت :

ـ كيف يعرف الكلب البراءة دون أية قرينة ؟! .. فالمعتاد أنه فى جرائم القتل مثلا يشم الكلب رائحة السلاح أو أى أثر

من آثار المجرم يكون قد تركه ، ثم يظل يتقصى هذه الرائحة حتى يصل إلى صاحبها ... ولكن إن كان الانسان بريئا فهو بلا أثر أو رائحة فى أى مكان للجريمة لأنه ليست هناك جريمة ، فكيف يشم الكلب رائحة البراءة ؟! والأصعب من هذا : كيف يشم رائحة البراءة من التفكير ؟!

رد المندوب فى صرامة :

— ضابط المخفر يعرف كيف يتقن عمله ..

لكنه بعد حين همس :

— بينى وبينك فإن رأيى مثل رأيك . . إننى أعتقد بأن الكلاب ارتبكت ولم تعد تفهم بالضبط أوامر صاحبها ، فهى فى كل مرة تجد الطابور الكبير الذى وقفت أنت فيه ، وفى كل مرة تجده مكونا من نفس الرجال التسعة والثلاثين الذين وقفوا معك عدا واحدا غريبا فقط ، لذلك فإنى أظن أنها صارت تظن أن المطلوب منها هو إخراج الغريب ! .. وطبعا لا علاقة بين هذا وبين البراءة أو عدمها .

عند ذلك عبرتنا سيارة طويلة عظيمة الفخامة أثارت ترابا كثيفا فى عيوننا .

● المندوب يمشي مختالا :

.. وظللنا نطوف ونطوف .. حتى وصلنا إلى مدن صغيرة لم أسمع عن أسمائها ، وأحياء ممعنة فى الفقر لم أكن أتصور وجودها فى أيبوط السعيدة ، مما جعلنى أتعجب من سكانها : كيف لا يخرجون شاهرين سيوفهم وهم باتوا لا يجدون قوت أولادهم ؟ !

وانتفخت الحقيبة ببراءات المخافر — عدة مئات على ما أظن — وتضاعفت بذلك مكافأة المندوب فسار بجوارى مزهوا منتفخا كأحد كبار الأثرياء . . وفى نفس الوقت رحت أمنى نفسى بقرب استرداد حريتى ، وصرت أستعجل هذه اللحظة .

● الشارع الجانبي :

وفيه صادفنا عددا من المتسولين ، وعددا آخر من المتسكعين مهلهلى الثياب . . ثم عبرنا على امرأة بثوب صارخ اللون ، تفحصتنا مليا ثم صرفت أنظارها عنا وبعد أن ابتعدت قليلا ظلت تسب المندوب بأقذع الألفاظ ... وكنت قد بدأت أشعر بالجوع .

وأمام الأكواخ الصغيرة الفقيرة كان الأطفال الحفاة وكلب أجرب ، ورأيت الذباب يكاد يخفى وجه طفلة صغيرة تلعب فى

الطين . . وعلى الجانب الآخر سارت فتاة جميلة ناهدة فائرة يغازلها ولد ممشوق القامة ، وكانا جميلين لولا أنيميا بشعة تصبغ وجهيهما بصفرة الكركم ! !

قال المندوب معتذرا :

— شارع قذر لكنه أقرب إلى محطة البلدة من الشارع الرئيسى .

ثم أسرع أمامى بحقيبته السوداء المنتفخة بشهادات براءتى... ولوهلة فكرت أننى يمكننى الهرب فى مثل هذا المكان المزدحم، لكننى فوجئت بالمندوب يحكى لى حكاية متهم سابق حاول الهرب فلم يفلح وكان نصيبه التكبيل بالسلاسل الثقيلة لليدين والقدمين مدى الحياة ..

ثم تابع سيره فى هدوء وثقة وسبقنى دون أن يلتفت وراءه .. والجوع يكاد أن يفتك بى :

الفصل الخامس

انظر ؟٠٠ انظر ؟٠٠

● منه أكل ومنه تسالى :

فى قطار الدرجة السابعة زاد شعورى بالجوع إلى درجة آلمت بطنى ، منذ عشرين ساعة تقريباً لم تدخل معدتى لقمة واحدة.. وعندما أخبرت المندوب بهذا ونحن سائرون فى الشارع الجانبى صبرنى قائلا :

— سوف نأكل فى القطار لأنى لاأضمن نظافة الأكل فى هذا الشارع الوضيع ، ومادمت أنت عهدة فى حوزتى فانا مسؤول عن حياتك إلى آن تسجن ... ...

وبعد برهة أكمل فى رنة ساخرة :

— أو يطلق سراحك

وكان جوعى أقوى من أن ألاحظ الرنة الساخرة . لذلك فقد ظللت أترقب بائع القطار حتى أهل بسندويتشاته .. تناولت واحدا والمندوب واحدا ، واشترى العجوز المجاور واحدا .. وكان مع البائع كتاب عريض ، نزع منه ثلاث ورقات ليلف بها السندويتشات الثلاثة التى باعها لنا .

التهمت سندويتشى بسرعة الجائع ، ولم أعرف بالضبط إن كان ما به جبن أم شيء آخر .. ولما فرغت قبل المندوب وقبل

العجوز المجاور ألقيت بورقة اللف، ثم لاحظت أن بها كتابة فالتقطتها ثانية ، وأخذت أسلى نفسى بقراءة ما فيها .. ويبدو أن الكتاب الذى انتزعت منه كان كتابا فى التاريخ ، وبالتحديد فى تاريخ تلك الدولة المطلة على البحرين الأبيض والأحمر والمرتوية من نهر النيل والمسماة مصر ..

وكانت الورقة تحتوى على صفحتين ، ورحت أقرأ ....

● الصفحة الأولى من الورقة :

... ... رأسا على عقب ، وكان ذلك حوالى عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد .. وسنقتبس مقتطفات من عدة نصوص تتفق فى دهشتها وحزنها على ما آل إليه أمر مصر القديمة ؛؛

فالمتنبىء «إيبو — ور» يقول : «انظر ! لماذا تدور الدنيا كما تدور عجلة الفخار ، فاللص يملك والشريف يتهم والأمين يطارد ؟! .. لماذا أصبحت الطرق غير محروسة ، إذا خرج ثلاثة رجال عاد منهم اثنان ؟! .. انظر : لماذا صارت هذه الأعوام أعوام خوف ؟!

ليت ذلك يكون نهاية الناس فلا حمل ولا ولادة ، لتخلو الأرض من ضجيج المخاصمات ! ! ؛.

انظر : لقد عرف سر البلاد !! انتهى الأمر وعرف سر البلاد !! »

وبعد ذلك يتساءل « إيبو — ور » عن فائدة خزينة الدولة وهى دائما خاوية ، فموظفو الخزانة يسرقون الضرائب ، وقوانين الديوان قد ألقيت إلى الطريق !

واستشرت الفوضى فى عموم البلاد حتى صار الموتى لا يجدون من يدفنهم ، وصاروا يلقى بهم إلى النهر ، فأصبح مجرى الماء قبرا !!

وهذا يتضمن الانتحار أيضاً ، دفع اليأس والجوع والظلم بالكثيرين إلى الانتحار بالقاء أنفسهم إلى النيل الزاخر بالتماسيح : « انظر : إن التماسيح تبقى تحت الماء لكثرة ما حصلت عليه ! .. ولم تعد فى حاجة إلى الخروج بعيدا عن النهر لاصطياد فرائسها ، فالناس يذهبون إليها من تلقاء أنفسهم .. »

... ...

إلى هنا انتهت الصفحة الأولى من ورقة السندويتش ، فقلبتها إلى ظهرها ، شاكرا الظروف أن مثل هذه الأمور لا تقع فى إيبوط المجيدة ، فهى سعيدة طبقا للبيانات الرسمية ..

● نص المكتوب في ظهر الورقة :

.. كان ما أصاب مصر مرضا كامنا في جسدها ولم يكن عدوى أو إصابة من أحد آخر ، إذ لم يكن الجسم المصرى على قدر كاف من الصحة .. فانهارت الدولة من الاجهاد الداخلى ، وتركت الحدود مفتوحة لا يدافع عنها أحد .. فعرف سر البلاد وتدفق الآسيويون ، وناح المتنبئ « نفر – روهر » معلنا : « ظهر الأعداء فى الشرق ، وجاء الآسيويون إلى مصر . ستشرب وحوش الصحراء من مياه النيل !! »

ولكن اليأس والزهد لم يكونا الردين الوحيدين على مشكلة الألم . . إن « إيبو – ور » يجابه حاكمه قائلا : « تتجمع فيك السلطة ولكنك لا تنشر فى البلاد غير ضوضاء الفوضى .. انظر : صار كل شخص ينطلى وجهه خوفا من المستقبل ، وهذا يعنى فى الحقيقة أنك كنت كاذبا .. »

كذلك فلاح « أهناسيا » الفصيح ، نجده لا يتهيب من مجابهة حاكمه : « على من يوزع الحق أن يكون منصفا ومضبوطا مثل كفتى الميزان . . لقد عينوك لتكون سدا للمتألم تحافظ عليه من الغرق ، ولكن انظر : إنك أصبحت البحر الذى يغرق فيه الناس !! » ..

ورغم شدة قتامة الصورة ، فان المؤرخين يعتبرون هذا العصر عصرا زاهرا فى تاريخ التقدم البشرى بسبب أن مصر كانت قد وصلت إلى المناداة بأن لكل فرد حقه الشخصى فى معاملة عادلة ..

وسوف نرى فى الباب العاشر من هذا الكتاب أن الانهيار النهائى للروح المصرية جاء مع إنكار الحكام على الناس حق الكلام ..

... ...

انتهت سطور هذه الصفحة ، ويبدو أنها كانت نهاية فصل من الكتاب ..

● ذات الهمسة الآسرة :

كان القطار يسير بطيئا ، وعدد من الركاب قد ذهبوا فى إغفاء القيلولة .. ويبدو أن العجوز المجاور كان يعانى من الملل مثلى ، إذ كان منهمكا فى أكل سندويتشه ، بينما استغرق فى قراءة ورقته وقد رفعها أمام عينيه بيده الأخرى ..

ظللت أنتظر فراغه منها كى أتسلى بقراءتها — بينما المندوب يأكل سندويتشه فى تباطؤ الشبعان ، دليلا على تناوله الطعام فى

المخفر الأخير من خلف ظهرى ودون أن يتذكرنى — فأخذت أسلى نفسى بالتطلع إلى الخارج .. وبعد وقت سمعت صوت قطار يقترب من الاتجاه المضاد ، فنظرت بدافع الفضول ، ولما حاذانا رحت أتأمل عرباته ، وعندها وفى عربة الدرجة السابعة خيل لى أننى شاهدت حبيبتى بجوار إحدى النوافذ !! .. فقفزت مشرئبا بجسدى خارج العربة مناديا عليها بأعلى صوتى ، غير أن قطارها ابتعد ثم اختفى .. فجلست منفعلا ليرمقنى المندوب بنظرة حادة صارمة دون أن يكف عن المضغ البطىء ، وليتأملنى العجوز المجاور طويلا فى حنان ورثاء ..

ساءلت نفسى : أتكون هى حبيبتى حقاً ؟! وإن كانت هى فما الذى أركبها عربة الدرجة السابعة ؟! .. ثم تذكرت أنه كانت إلى جوارها امرأة أخرى !! .. فهل أمسكوها ليطوفوا بها مثلى ؟! ولكن لأى ذنب ؟!

أغمضت عينى هامسا لنفسى بأن ما رأيته ليس إلا وهم خيال خلقه ذهنى المكدود ، وبأن المرأة التى شاهدتها ليست حبيبتى ..

غير أن دوامة الوساوس استولت على : كيف حالها الآن بعد أن طال بنا الفراق ؟! وهل تحتمل الحياة فى غيبتى دون رجل ودون حب وجنس ؟! ..

ولم ينقذنى من هذه الدوامة المزعجة إلا صوت العجوز المجاور يطلب منى مبادلته ورقة بورقة ، فرحبت بذلك .: ومن النظرة الأولى أدركت أن ورقته ليست التالية فى التسلسل الرقمى لورقتى ، إذ يبدو أنها كانت تتحدث عن فترة أخرى (حوالى عام ١١٧٠ قبل الميلاد على ما أذكر) .. وفيها حدث انهيار آخر للدولة المصرية بعد أن كانت مركزا لحضارة العالم المأهول ..

وبدأت أقرأ ورقة العجوز ..

● **الوجه الأول منها :**

(وهو محلى بصورة لأحد النقوش الفرعونية تمثل بعض العمال أثناء عملهم .. وتحت الرسم كتب ما يلى :)

... ... الشهر الثانى ، من الفصل الثانى ، اليوم العاشر :
فى هذا اليوم اخترق طريق العمال فى الجبانة الأسوار الخمسة صائحين : « نحن جياع ، نحن جياع » ـــ وكان هذا أول إضراب للعمال فى العالم ـــ وفى اليوم الثالث تجرأوا وهجموا على معبد رمسيس الثانى ، وعند ذاك هرع إليهم عدد كبير من الحراس ، ووعدهم كبير الشرطة بأنه سيرفع الأمر إلى عمدة طيبة الذى كان قد فضل الاختفاء عن الأنظار .. كان المضربون مصممين على موقفهم ولكنهم لم يخرجوا على النظام ، واستمع الموظفون إلى

احتجاجهم : « لقد جئنا إلى هذا المكان بسبب الجوع ، فنحن بدون ثياب وبدون زيت وبدون سمك وبدون خضراوات » .. وصرفوا لهم مخصصات الشهر السابق ..

ولكن التجربة علمتهم ألا تثنيهم الترضيه الجزئية عن عزمهم .. وطالبوا بأن تدفع لهم مخصصاتهم عن الشهر الحالى أيضا ..

ولعل قلة الدخل وعدم أمانة الموظفين والمنازعات السياسية والإهمال فى العمل وانتشار الرشوة كانت من بين الأدواء الكامنة فى تاريخ مصر ... فكان الفساد الأعظم وأعوام الضياع التى فيها مات الناس جوعا ... لتمر السنين ويحكم مصر « شيشنق » الليبى ثم « بيعنخى » الأثيوبى ثم الأشوريون والبابليون . . ثم تلا ذلك غزو الفرس لمصر وأخيراً المقدونيون ... إلى آخره وهذا ما أدى إلى إحساس المصرى بالذنب وإلى شعوره بالخطيئة .. ..

● الوجه الآخر من ورقة العجوز :

... ... وسنقتبس جزءا من أناشيد الندم والتوبة التى انتشرت فى ذلك العصر .. يقول المنشد : « أيها الإله لا تعاقبنى

على ذنوبى الكثيرة ، فإننى امرؤ لا عقل له أقضى طوال يومى فى ملء فمى كما تفعل البقرة فى طلب الحشائش .. » ..

وهنا نرى حرصه على تحقير ذاته وتشبيه نفسه بالبقرة التى لا تتكلم . فقد كانت أهم صفة يمتدحها الناس فى ذلك العصر هى الصمت ! .. ويعنون بالصمت أشياء عديدة ومهينة منها : الصبر القهرى أى الاستسلام والتواضع العاجز أى الخنوع ..

وعلى العكس من ذلك نلاحظ أنه فى عصور الازدهار وعظمة الإمبراطورية لم يكن الصمت ميزة من الميزات التى يتباهى بها المصرى المرح ، بل قدرته على الفصاحة لنيل مبتغاه : «كنت فنانا فى الحديث ، شجاعا بلسانى ، عاملا بذراعى » .. وكان يجاهر متفاخراً بأنه ابن الحكماء ، ابن الملوك القدماء ..

فلما تصلبت شرايين مصر زاد التجاؤها إلى الشكل عوضا عن المضمون . وأصبح الناس منصرفين إلى المظاهر الطقسية ، لأنهم رأوا فى ذلك استمرارا لنشاط أيديهم وأفواههم التى حرموها من نشاطها وحريتها الخاصة ، وظهرت الشعوذة ومظاهر السحر والرقى ، والإيمان بالفال والاتجاه نحو النبوءات ... لقد شغل المصريون أنفسهم بهذه الأشياء متناسين أنه كان محالا بينهم وبين التعبير عن آرائهم الفردية ..

... ...

وفى أسفل هذا الكلام رسمت زهرة اللوتس ، ربما بسبب انتهاء الكتاب أو على الأقل انتهاء هذا الفصل •

● العجوز الذى يهوى التجوال الدائم :

.: وكان القطار يبطىء إيذانا بدخوله إلى المحطة القادمة .: ولما نظرت إلى المندوب وجدته قد انتهى من الأكل وورقة السندويتش ملقاة أسفله على الأرض ، التقطتها ونظفتها من آثار حذائه بينما هو ينهض متجهاً إلى باب النزول ، فاكتشف بعد ثوان أن القطار توقف فى غير محطة ولسبب غير معروف ، فعدنا إلى أماكننا ، واحتفظت بالورقة فى جيبى ..

كان العجوز يتأمل المنظر الخارجى فى هدوء ودعة وقد خلص من قراءة ورقتى ، وكان وجهه متسما بسيماء الحكماء .: وسرعان ما تحادثنا معا ، فعرفت عنه هواية ركوب القطارات ، يركب الخط من أوله إلى آخره ثم يعود ليستقل قطاراً آخر ، وهكذا وبلا ملل ..

قال :

— منذ أحالونى إلى الاستيداع وأنا جوال طواف

قلت رامقا المندوب فى حذر :

— جوال بارادتك ، طواف برغبتك .. وإنى لأحسدك .

أومأ فى أسى :

— أعرف أنك طواف رغم أنفك ، جوال ضد إرادتك

— كيف عرفت ؟!

— كثيراً ما ركب إلى جوارى أشخاص مثلك يصحبهم أشخاص مثله

همست فى أذنه :

— أرأيتهم فى الذهاب أم فى العودة ؟؟

— معظمهم فى الذهاب

— لكنك رأيت بعضهم عائدين ؟!

— الحقيقة : لم تصادفنى هذه الحالة

ولما رأى ابتئاسى أضاف برنة واهنة :

— أظن أننى تخايلت فى بعض أشباهك وهم عائدون

● وكان قبل ذلك قاضيا يحكم بالعدل :

وكانت محكمته هى محكمة إيبوط الكبرى بالعاصمة .. لكنه أحيل إلى الاستيداع قبل السن القانونى بعدة سنوات وليس بناء على طلب منه :

ـ أحالونى إلى الاستيداع لأنى حكمت فى ثلاث قضايا فى يوم واحد

ـ سمعت عن قضاة يحكمون فى عشرات القضايا فى ساعة واحدة

ـ ليس بسبب العدد ، وإنما بسبب النوعية

ثم أخذ يسهب فى الحديث عن هذه القضايا التى فصل فيها فى حكم واحد .. وكان لصوته رنين القناعة بما فعل .

● القضية الأولى باختصار شديد :

وهى قضية سرقة : اتهم فيها واحد من صغار المحاسبين باحدى المؤسسات الضخمة ، وقد اعترف اعترافا متناقضا : قال أنه سارق وفى نفس الوقت ليس بسارق !! .. فلما سأله القاضى تفسيراً قص عليه قصته .. فى شهره الأول من العمل اكتشف أن رئيسه المباشر يختلس من أموال المؤسسة ، فذهب وأبلغ عنه رئيس القسم الذى وبخه وزجره لسوء ظنه .. وفى شهره الثانى اكتشف أن رئيس القسم أيضا يسرق ، فشكاه إلى رئيس الفرع الذى أرسل إليه لفت نظر بألا يتطاول بالشك مرة أخرى فى رؤسائه الشرفاء .. لكن هذا الموظف ظل يكتشف شهرا بعد

شهر تورط رئيس أعلى ، مع تزايد حجم السرقة بتعاظم شأن كل رئيس ، إلى أن تدرج إلى نائب رئيس المؤسسة كلها !! .. ففار دمه وطلب مقابلة رئيس المؤسسة شخصيا لثقته فى ورعه وفى المسبحة التى تظهر معه فى جميع صور الاعلانات التى تنشرها المؤسسة تجديدا لبيعة الدجم .

واستمع إليه الرئيس فى أناة ، وبعد أن سجل أمامه بعض الملاحظات نهض وحياه بتحية المؤمنين شاكرا فيه همته ونزاهته ثم صرفه .. ليفاجأ صديقى الطيب فى اليوم التالى مباشرة بخصم نصف شهر من راتبه الضئيل ، فجن جنونه وحاول مقابلة الرئيس مرة ثانية ولكنه منع بقسوة ، فما كان منه إلا أن اختلس من أموال المؤسسة ما يعادل تماما نصف راتبه المخصوم ظلما ... وبذلك يكون قد سرق ولم يسرق ..

وتلك هى خلاصة القضية الأولى كما رواها جارى العجوز فى القطار المتوقف ..

● **مجمل وقائع القضية الثانية :**

(وكان القطار قد بدأ يسير) .. وهى قضية بغاء : والمتهمة فيها امرأة نحيفة ضبطها أحد المؤلاء وهى تتفق مع أحد الرجال على قضاء ليلة فى شقته مقابل مبلغ صغير .. وعندما وقفت أمام

القاضى رأى فى وجهها ما ينم عن سوء التغذية ، وعلى الفور تذكر بالمفارقة حال العمارة التى يقطن فيها ، وبها ٢٦ شقة كبيرة ، منها خمس عشرة على الأقل تمتلكها عائلات لأربابها مناصب هامة ولرباتها نفوذ واسع ، وهذا هو الظاهر بينما فى الحقيقة تدار هذه الشقق لمتعة بعض الشخصيات الهامة والسياح وأصحاب البترول ، وكله بالمال الكثير !! .. وهذه لا يجرؤ أحد الهؤلاء على الاقتراب منها إلا كزبون .. بينما هم يقتادون المرأة النحيفة سيئة التغذية إلى القضاء ليحكم بالعدل ..

قال القاضى

— وقد حكمت بالعدل .. كما أراه ..

● أما القضية الثالثة :

فهى قضية إزهاق روح .. قام بها أحد الفلاحين بقتل موظف «جمعية السماد والكسب والبذور» فى قريته بطلق نار من بندقية قديمة ، فقضى عليه للتو ، وعندما قبض عليه اعترف ولم ينكر ..

والذى حدث أن هذا الموظف أعطاه بذورا فاسدة أنبتت زرعا هزيلا ، ثم باعه سمادا مغشوشا أضعف الزرع الهزيل .. وعندئذ شعر الفلاح بالإهانة إذ أن زرعة كاملة من أرضه قد

بارت وقتلت دون ذنب منه ، فجلس فوق الأرض يفكر ، وبعد وقت رأى أن هذا الموظف لا يستحق الحياة فقتله .

قال القاضى :

ــ وكل الذى فعلته أننى اعتمدت حكمه ..

● **مبررات الحكم فى القضايا الثلاث :**

ثم حدثنى القاضى على الاستيداع فقال :

ــ المعتاد أن يصدر الحكم فى كل قضية على حدة ، أى واحدة تلو الأخرى .. لكنى فى هذه القضايا الثلاث لم أحافظ على هذا التقليد ، فى رأيى أنها قضية واحدة .. ألست معى فى أنها قضية واحدة ؟

رمقنى المندوب بنظرة حادة فلم أرد .. وقال القاضى :

ــ أحضرت المتهمين الثلاثة وأعلنت حكمى فيهم .. قلت للمحاسب الصغير : عندما أتمكن من محاكمة رؤسائك المختاسين حتى رئيس المؤسسة نفسه فسوف أحاكمك أنت .. وقلت للبغى : وعندما أقدر على إدخـــال صاحبات الشقق الخمس عشرة وأزواجهن إلى السجن فسوف أدخلك أنت .. وقلت للفلاح :

أما أنت فقد أثبت دون أدنى شك أن كثيراً من الناس يصلحون قضاة عادلين حتى وإن كانوا فلاحين مثلك ! !

هز العجوز رأسه :

— وحكمت عليهم بالبراءة الشاملة .. فقامت قيامة البعض ولم تقعد إلا بعد إحالتى إلى الاستيداع — وأنا غير نادم — لأنفق معاشى فى الطواف بأنحاء الأرض .. أجالس الناس وأتحدث معهم

ثم قال :

— وحكمتى فى ذلك هى الابتعاد عن فساد القوم بالعاصمة .

● حبيبتى .. حبيبتى :

ولما سكت ظللت ساهما صامتا إلى أن عبرنا قطار مضاد .. وهذه المرة تطلعت بسرعة من النافذة ، مدققا النظر فى عربة الدرجة السابعة ، وكدت أقطع شكى باليقين عندما رأيت حبيبتى من إحدى النوافذ وبجوارها امرأة أخرى .. أسرعت بالنداء ، فنظرت نحوى واشرأبت بنصف جسدها ولكنها لم تلوح لى ، وكان وجهها شاحبا باكيا ، وتطايرت ضفيرتها الوحيدة مع الهواء ... لكننى لم أر فيها حسن حبيبتى وروعة بهائها .

وبعد أن اختفى القطار تماما عدت إلى مقعدى مغموما مقهورا ، وشعرت بالعرق البارد يغمرنى ، وبكل الأشياء تغيم من أمامى ، ففقدت إحساسى بالوقت وبالمكان ، إلى أن شعرت بالمندوب يلكزنى فى عنف كى أمضى من خلفه حيث كان قطارنا قد وصل إلى المحطة المقصودة ..

***

الفصل السادس

نظرية جديدة
فى
نشوء المدن وتطورها

● الوحدة على الخط المنفرد :

.. ثم عدنا إلى المحطة بأوراق براءات جديدة . . وسار القطار . . وتضاعف الورق حتى خلت أننا سنوالى الطواف إلى ما لا نهاية . . . وفكرت فى الهرب مرة أخرى لكن المندوب عاد يقص على محاولات السابقين لى والتى باءت جميعها بالفشل وكانت وبالا عليهم . .

وصلنا إلى الأطراف المترامية من أبيوط . . حيث انقلب الخط الحديدى من خط مزدوج للذهاب والإياب إلى خط مفرد ! ! .. فلماذا خط مفرد ؟!

ثم أخذ الألم يعاودنى عن المصير الذى آلت إليه حبيبتى ! ! لماذا يفعلون بها ذلك ؟! .. وهاجمنى صداع ثقيل عندما تذكرت قول الرجل المضغوط بأن ذوقه فى النساء يكاد يطابق ذوقى إلى حد مذهل ! ! .. فهل طابها لنفسه ورفضته هى فانتقم منها .!

زاد ضغط الألم على قلبى ورأسى ، فغامت عيناى عن الرؤية .. وقلت ربما لم تكن هى ، ربما كانت شبيهة لها . . . بينما القطار فوق الخط المفرد يتأرجح على مهل — ولم يعد به من ركاب غيرى وغير المندوب — والبيوت الكالحة تتراجع وتنخفض لتحل محلها خضرة باهتة لزرع عليل ، ثم أكواخ الطين وعشش

الفقراء وانحناء الجوع والمرض .. وبعد ذلك جاءت الصحراء ، جرداء صفراء صفرة لا نهائية ، خالية حتى من الكلأ ، حتى من الأشواك .. رمال منبسطة ولا شيء غير ذلك من الجانبين . . وضايقتني الحرارة وصمت المندوب المسترخي والمقاعد الخشبية الخالية ، وصار الملل لا يطاق ..

تذكرت الورقة في جيبي ، والتي كان ملفوفا بها سندويتش المندوب ، أخرجتها وفردتها . . وكانت أيضا تتحدث عن تاريخ مصر الأصيله والتي كثيراً ما حلمت بأنني أحد رعاياها المتعبدين في عراقة تراثها وجمال إبداعها وسماحة فكرها — وهو الحلم الذي لا أجرؤ على ذكره أمام أي واحد من الهؤلاء — والتي كنت أراها في منامي وقد نفضت كافة القيود عن عقلها وروحها . .

● ما قرأته في الورقة الثالثة :

.. وقد كانت فترة الاحتلال التركي العثماني كارثة الكوارث من حيث القمع والبطش والنهب ، لدرجة أن الجبرتي كتب في شهر أغسطس من عام ١٦٦٥ يقول بالحرف الواحد : « اجتمع الفقراء رجالاً ونساء وصبيانا وطلعوا القلعة ، ووقفوا بحوش الديوان وصاحوا من الجوع فلم يجبهم أحد ، فنزلوا إلى الرميلة ونهبوا وكالة القمح وحاصل كتخدا الباشا وكان ملآنا بالشعير والفول .. وكانت هذه الحادثة ابتداء الغلاء ، وحصلت شدة

عظيمة بمصر وأقاليمها ، واشتد الكرب حتى خطف الفقراء الخبز من الأسواق ومن رءوس الخبازين ، ويذهب الرجلان والثلاثة مع طبق الخبز يحرسونه من الخطف وبأيديهم العصى حتى يخبزوه ثم يعودون به . . . مات الكثير من الجوع ،! .. وأكل الناس الجيف ! ..

. . . . وانتهى الأمر بأن أشيع فى الناس بأن القيامة قائمة يوم الجمعة ١٩ مايو سنة ١٧٣٥ م . . وفشا فى الناس قاطبة ، وودعوا بعضهم بعضا ، ويقول الإنسان لرفيقه بقى من عمرنا يومان ... ومن الناس من علاه الحزن وداخله الوهم . . وخرج الكثيرون من الخاليج الرقعاء إلى الغيطان والحدائق ويقولون لبعضهم البعض : دعونا نعمل خطا ونودع الدنيا قبل أن تقوم القيامة !! . . . . . »

لقد تمنى الناس قومة القيامة لأن حياتهم صارت جحيما . . . فإذا نحن تقدمنا فى تاريخ هذا البلد — مصر — وإلى أن نصل لأيامنا هذه وجدنا أن ... ...

... ...

ولم أتمكن من إكمال القراءة . . فلسبب مجهول — وعند هذا الحد — مد المندوب يده فجأة وخطف الورقة منى وألقاها من نافذة القطار .

سألته تفسيرا لذلك فلم يزد عن قوله :

– إن القراءة ممنوعة فى قطار الخط المفرد ، إلى جانب أنها تتعب النظر ! !

وبعد ذلك مالت الشمس إلى المغيب لتزيد أشعتها الصفراء من صفرة الصحراء الجرداء . . . ثم أخذت تعتم وتعتم حتى اسودت الأرض والسماء واختفت كل الأشياء . . ودخلنا فى ظلام لا آخر له . .

● ليل الصحراء وعتاب صغير :

. . انتظرت أن يضاء نور العربة لكن هذا لم يحدث ، فكان الظلام داخل القطار أيضا ومن جميع الجهات . . وسيره بطيئا ورجرجته كثيرة . . فنمت – كـكل مرة – نوماً متقطعاً لا أعرف مدته . . ومن حين لآخر كنت أرى عن قرب نقطة حمراء لسيجارة المندوب تتوهج ثم تنخفض ليخفت لونها . .

ثم تلا كل ذلك طاوع ما يشبه الضوء المرتعش المكتوم والحرارة حامية شديدة الوطأة . . وخلع مرافقى سترته وفعلت مثله ، ولاحظت أن جسدى يتصبب عرقا دون توقف .

طلبت من المندوب أن نتكلم معا لكسر سخافة الوقت الممل ،

فأجاب بأن التعليمات لا تمنع الكلام فى قطار الخط المفرد .

قلت :

– لاحظت أنك تتعمد إطالة مدة جولاتنا هذه ، وأخشى أن يكون ذلك لمضاعفة مكافأتك المالية . ولا تؤاخذنى إذا

قاطعنى فى برود :

– كم أنت سىء الظن !!

أخرج منديله ومسح عينيه ثم تمخط وتهدج صوته :

– لم أكن أعرف أنك حاقد هكذا . . وبفرض أننى أتعمد إطالة الطواف لمضاعفة ربحى ، فهل تكره لى أن أعيش شهر مصيفى فى رغد وهناء .! .. هل تكره فائدة لأخيك الإنسان . !

● مخفر الرمال :

وعندما تابعنا رحلتنا سيرا على الأقدام وسط رمال الصحراء ظل المندوب ممسكا عن الكلام ، ومنذ أن هبطنا عند آخر الشريط المفرد وانقباض شديد يعصر قلبى ، ربما بسبب خلو المكان القفر !! ... لذلك فقد عجبت جدا عندما لاحت لى بناية المخفر المقصود ، خرسانية عملاقة فى خلاء ممتد أجرد !!

ـ فلماذ يبنون هذا المخفر فى هذا المكان القفر الأجرد .!

فى البداية رفض الإجابة ، فتسمرت فى مكانى فى عناد ، فسار يتكلم وأنا من ورائه :

ـ تعرف أن كلية الشرطة تخرج الضباط كل عام .. أصواب أم خطأ ؟؟

ـ صواب . .

(وذكرتنى طريقة أسئلته بالرجل المضغوط رئيس هؤلاء أيبوط الذى أمر بطوافى المؤلم هذا) .. قال المندوب :

ـ ولقد امتلأت جميع المخافر الموجودة بالخريجين إلى درجة الامتلاء . . ومع ذلك فإن الكلية تخرج كل عام دفعات جديدة فأين يذهبون ؟!

ـ ما دمنا لسنا فى حاجة إليهم فلتغلق الكلية

ـ وأين يذهب موظفوه وأساتذته وضباطه ؟!

● **أيبوط تبتكر نظرية جديدة فى نشوء المدن :**

وعدت أسأله :

ـ لكنك لم تقل عن السر فى إقامة هذا المخفر هنا ؟ !

— بعد نظر

— لا أفهم

— لانتشار العمران

— لا أفهم أيضاً

— قديما كانت المدن تنشأ حول منابع المياه أو حول مراكز المواصلات .. أصواب أم خطأ ؟؟

— صواب ، وهذا معروف فى التاريخ كله ..

— لقد كان هذا يحدث فى العصور المتخلفة .. أما فى عصرنا الحديث فالمدن تنشأ حول المخافر ، فى البداية يجىء المخفر فيعم الأمن فى الخلاء المحيط به . وعندئذ تبنى البيوت ثم تتكون المدن . .

— فهذا المخفر إذن هو نواة لمدينة جديدة ؟؟

— نعم . . وهذا هو التفسير الرسمى ، وهو كما ترى مقنع تماما

ثم همس بالهمسة التالية :

— وهناك سبب آخر ، وهذا بينى وبينك ، وهو أننا ببناء

هذا المخفر تتيح فرصة التعيين لبعض الخريجين براتب كبير فنر،
بهذا آباءهم وهم من ذوى الحيثية ، وهذا بالطبع أفضل أ
مرة من أن نتركهم بلا عمل ، تسمع طبعاً عن نجاسة الأيد
البطالة ؟ !

● همسات أخرى .. وأخيرة :

ـ وهناك فوائد إضافية لهذه المخافر الصحراوية ، وهى
نضع فيها المسجونين السياسيين ، فهم كما تعرف مشاغبو
وأصواتهم عالية ، وهنا يضيع ضجيجهم فى رحابة الصحراء .
بالإضافة إلى سبب إنسانى نبيل وهو أن هواء الصحراء جاف يف
مرضى الصدور ، ومعظم المسجونين السياسيين يشكون من ء
الصدر بسبب انكبابهم على القراءة فى الغرف المغلقة أو فى المكتبات
الرطبة وبسبب أنهم ينفقون أموالهم فى اقتناء الكتب وليس .
شراء الأكل المفيد .. وعلى هذا يمكنك أن تقول وأنت مستري
الضمير بأن هذه المخافر بمثابة المصحات الطبية لأبدانهم ولعقولهم.

(وفى مجال الكتب ذكر لى أيضا بأن قراءتها ترهق العين
وبأن وجودها فى البيت يجلب الفئران والصراصير) .

● آمال فوق الرمال :

أكد لى المندوب أن هذا هو المخفر الأخير .. وكانت الحقيبة

معه قد اكتظت عن آخرها باوراق البراءة ، وبقى لى أن أحصل على ورقة واحدة مشابهة من هذا المكان الذى ندنو منه وأنال حريتى وارتفاع هامتى .. وقررت فى نفسى أن أحاسب الرجل المضغوط حسابا عسيرا عند عودتى ، وقررت أيضا أن أفضح أمره لدى الناس وإن اكشف فظائع كل الجاحظين من أمثاله ، هكذا قر فرارى وفى مخيلتى صورة سجين الجحر فى المخفر الأربعين وفى أذنى صوته البائس ينصحنى بان أحارب الأوساخ بطريقتهم ، ثم وهو يقول بان اكتشاف العبرة إن جاء متأخرا فهو لا فائدة منه ..

ورغم وهج الرمال وحرارة الجو إلا إننى حلمت بشقتى ووعدت نفسى بان أنام لدى عودتى ثلاثة أيام متتالية ، أمضيها بين الأكل والنوم ولا شىء .. ثم حلمت بحضن حبيبتى واسعة العينين ذات الهمسة الآسرة ، ورأيتنى أدعوها إلى اللقاء بعد استرداد عافيتى لاستمتع بقبلاتها وباخذها فى حضنى ..ونويت أن أصطحبها فى رحلة سياحية لبعض آثار مصر ، لتشاهد معى تلك الأميرة الساحرة المنقوشة فوق جدار المعبد الفرعونى كى ترى بنفسها كم هى قريبة الشبه منها ..

لكن أين هى الآن ؟ ! وماذا فعلوا أو يفعلون بها ؟ ! ولماذا أمسكوها ولماذا أمسكوا بى أصلا ؟!

أمسكنى دوار القهر فمادت الرمال بى ...

● دوار المخفر الأخير :

ثم تماسكت من دوارى بصعوبة على زغللة البناية العالية ، كبنايات الغيلان فى قصص الخرافات ، لها باب رئيسى مغلق مترب العتبة .. ولا آثار لأقدام عن قربها !! . . أتكون البناية مهجورة غير مستعملة ؟ !

قال المندوب :

ــ سندخل من الباب الخلفى وهو ضيق

ودرنا .. وكانت أقدامنا تغوص فى الرمال الناعمة التى تسللت بين أصابع قدمى من ثقوب نعلى الحذاء المتآكلة . . بينما راح المندوب يمتدح ذكاء ضابط هذا المخفر ، فهو على عكس جميع السابقين قوى الذاكرة بشكل حاد وقاطع .. قال :

ــ إنه يتذكر عادة مايفشل فيه أقرانه ، لدرجة أنه تذكر تقريبا جميع الذين أحضرتهم من قبلك . .

دق قلبى .. قال :

ــ مع إنه يعانى من الفراغ والوحدة فى هذا المكان المنعزل !

● السابقون :

توقف المندوب ليرتدى سترته ويمسح عرقه وهو يقول :

ـ آخر مشتبه فيه أحضرته معى إلى هنا ، كان مثلك هكذا ، طيب وديع ، يثور سريعاً ويهدأ أسرع .. ظل طوال رحلته يحدثني عن حنينه إلى طفله وزوجته ، وأراني صورة طفلة وكان باسما فى الصورة وجميلا . فأدركت أنه حظى بهذا الجمال عن طريق أمه . . واعترف لى الرجل بأنها فاتنة وأنه تزوجها بعد حب عظيم، وبعد نضال أعظم فى كسب ودها ...

قال فى عجب وهو ينتهى من هندمة نفسه :

ـ لا أفهم كيف يتزوج الإنسان بعد حب ! !.. المرأة تؤخذ.

ومضى يحدثنى عن أحكامه فى النساء وفى أمور الدنيا بكلمات نادرة حاسمة . .

● **لا أحد .. لا أحد :**

.. ثم عاد إلى قصة الرجل السابق لى وقال :

ـ قلت أنه كان وديعا وطيبا ، مثلك تماما ، وكنت قد حصلت له على وثائق البراءة من جميع المخافر .. وكان هذا مخفره الأخير ، ولو ثبتت براءته لتوجه إلى زوجته الفاتنة وطفله الجميل .. لكن ما أن دخلنا إلى الضابط الذكى ، وما أن وقع بصره على المتهم ، حتى زال ملله وانتعشت ملامحه الرسمية وبرقت عيناه

ظفرا وهو يخاطبه : « أخيرا وقعت فى يدى .. لقد كنت أنتظرك أيها المجرم » . . ثم أدخله غرفة السجن هاتفا منتصراً بأن انتظاره يدم طويلا فلا أحد يفلت .. لا أحد ..

أكمل المندوب :

-- ثم تركته معه بعد أن وقع لى على إيصال باستلامه . . وعند خروجى إلى الصحراء أخرجت وثائق براءاته ونثرتها جميعاً فوق الرمال الشاسعة ، وتنفست الصعداء لأنها كانت تثقل حقيبتى . . وبدأت أعود وصوت الضابط الذكى يردد منتصراً : « لا أحد يفلت .. لا أحد » .

● شواهد الباب الخلفى :

تسيبت أعصاب ساق . . وزاد توترى عندما فوجئت بما هو موجود أمام الباب الخلفى ، عدد كبير من الأحجار الضخمة الملقاة فوق الرمال وعلى مسافات شبه متساويه ! ! . . دهشت وتساءلت عن سرها فابتسم المندوب وطمأننى :

-- لا تخف إطلاقا . . إن المعاملة هنا أرق منها فى أى مخفر آخر ، بالإضافة إلى أنها حاسمة وهادئة .

اقتربنا من المدخل . وكان ضيقاً وخفيضا وينم عن ظلام

دامس فى الداخل . . فألححت على المندوب أن يخبرنى عن سر هذه الصخور ، همست :

— تبدو كشواهد قبور !!

ابتسم :

— أعترف لك بالذكاء إلى جانب الطيبة والوداعة ، كالسابق لك تماما ..

ارتجفت .. قال :

— لا تكن سىء الظن .. ألم تلاحظ أن رحلتنا إلى هنا كانت طويلة جداً مرهقة جداً ؟!

أومأت . قال :

— وهذا هو السبب . فعند تخيير السابقين لك بين البقاء هنا أو العودة اختاروا المكوث ..

كذب .. ضغطت على أسنانى .. كذب .

قال :

— أنا لا أكذب .. ألم توافقنى بنفسك توا أن رحلة المجىء كانت طويلة ومرهقة ؟! .. لقد فضلوا جميعهم البقاء هنا عن خوض تجربة الإياب . والمواطن حر فى ذلك .

وبدون مناسبة علا صوته بالهتاف لديار أيبوط الحرة ، وبحياة رئيسها الديجم العظيم .. ثم أمرنى بأن أتبعه ...

الفصل السابع والأخير

أيها الوديع الطيب

● الأصداء .. الأصداء :

– اتبعنى .. قلت لك اتبعنى ..

فخطوت خطوتى الأولى عبر عتبة الباب الضيق الخفيض.. وعدت أسأل المندوب :

– وهذه الأحجار التى فوق الرمال ، ماذا عنها ؟!

قال بصوت بارد :

– اتبعنى أيها الطيب الوديع

فلما تقدمت أكثر صار كل ما حولى ظلاما واختنافا .. وفقدت الرؤية فتتبعت أصوات خطواته ، محاذرا وفى بطء . كالسابح فى بحر الظلمات .. ولاحظت أن الصدى يردد وقع خطواتنا ، وإن لأنفاسنا خشخشة كخشخشة أوراق الأشجار المتساقطة .. وعندما تحدث المندوب ليجيبنى على سؤالى حدثت لصوته أصداء عديدة متتالية متداخلة .. ورنت كلماته ورنت الأصداء وجاءنى جوابه :

– كما قلت أنت أيها الوديع الطيب ، فهذه الأحجار هى بالفعل شواهد قبورهم ... قبورهم .. قبورهم .. هم ..

كتب للمؤلف

١ ـ فوستوك يصل إلى القمر — قصص — ١٩٦٧

٢ ـ خمس جرائد لم تقرأ — قصص — ١٩٧٠

٣ ـ الأيام التالية — قصص — ١٩٧٢

٤ ـ دوائر عدم الأمكان ـ رواية طبعة أولى (نفدت) — ١٩٧٢
طبعة ثانية — ١٩٧٥

٥ ـ أبناء الصمت ـ رواية (نفدت) — ١٩٧٤

٦ ـ غرائب الملوك ودسائس البنوك (حكايات حول قناة السويس) — ١٩٧٦

٧ ـ الهؤلاء ـ رواية (نفدت) — ١٩٧٦

٨ ـ الزليف ـ قصص (جائزة الدولة التشجيعية + وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى) — ١٩٧٨

٩ ــ غرفة المصادفة الأرضية ــ رواية	١٩٧٨
١٠ ــ مغامرات عجيبة ــ (رواية للأولاد والبنات)	١٩٨٠
١١ ــ كشك الموسيقى ــ (رواية للأولاد والبنات)	١٩٨٠
١٢ ــ حنان ــ رواية	١٩٨١

رقم الايداع ١٨٨٤/٨٣
الترقيم الدولى ٥-٠٢٩-١٧٢-٩٧٧

دار غريب للطبـــــاعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى)
ص ٠ ب ٥٨ (الدواوين) تليفون : ٢٢٠٧٩

الناشر

مكتبة غريب

٢٥١ شارع كامل صدقي (الفجالة)

الثمن ١٠٠ قرش

دار غريب للطباعة

١١ شارع نوبار (لاظوغلي) القاهرة

ص. ب. ١٨ (الدواوين) ـ تليفون ٢٢٠٧٩٠